الإسلام في مواجهة شبهات الماديين

الأستاذ الدّكتور

شوقي إبراهيم علي عبد الله

جامعة الملك سعود . كلّيّة التّربية

(سابقاً)

ملخص البحث

تعالج هذه الدراسة شبهات الإلحاد المعاصر.

والإلحاد رغم قدمه في تاريخ البشرية فإنه كظاهرة عامة لم تعرف بهذا العموم إلا في القرون الثلاثة الأخيرة، إذ ظهرت أكبر موجة إلحاد في التاريخ الحديث ويمكن تلخيص ذلك فيما يلي: تحريف الإسلام النازل على سيدنا عيسى، وتغيير الإنجيل، ومزج العقيدة الصحيحة بالفلسفة اليونانية والعقائد الوثنية الرومانية، وهو ما أدى إلى التثليث . . . إلخ.

كان رد الفعل لدى العلماء الشك في عقيدة الكنيسة وهاجموا الأديان عمومًا وأدى ذلك إلى إنكار الغيبيات والاقتراب من المادية البحتة والكفر بالإله.

وقد استعرض البحث منكري الغيبيات بعد تحديدهم وما الذي دعاهم للإنكار. كما عرض لأهم الشبه المثارة حول إنكار الغيبيات. فذكر أهم الأسس التي تقوم عليها هذه الظاهرة من القول بالمادة كحقيقة وحيدة موجودة يمكن البرهنة عليها، ونقد الباحث دعوى الماديين بأن هذه المادة الآلية الأبدية في زعمهم يمكن أن يفسر بها الوجود كله. كما ناقش دعوى الملاحدة المعاصرين بأن الصدفة وحدها هي العامل الرئيسي وراء الظواهر الكونية، وأثبت ضعف حجج القائلين بالمصادفة المنكرين للغاية والقصد من وراء الخلق.

كما تناولت الدراسة بالمناقشة والنقد ما احتج به الملحدون في إنكار وجود الله بوجود الشر في العالم ووجود الشرور والمظالم والموت وخلق الشواذ، كما فند دعواهم بأن الإيمان بالغيب خيال لا واقع، وردّ عليهم في دعواهم أن التدين نقيض التقدم في الحياة.

وقد جاء البحث في مقدمة وعرض لشبهات الماديين وتفنيدها - وقد حصرها في ١٣ شبهة - وخاتمة.

والله ولي التوفيق . . .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سلك منهجهم إلى يوم الدين.. أما بعد..

يقول الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1].

ويقول: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾[2].

تشير هذه الآيات القرآنية وغيرها إلى أن الناظر في كون الله الواسع لا يسعه إلا أن يعترف بأن لهذا الكون مدبرًا قادرًا خلقه بقدرته، فالكون كله إن هو إلا مظهر من مظاهر قدرة الله الشاملة وعنايته الحكيمة، ولكن كثيرًا من الناس يعطلون عقولهم، ويلغون فكرهم، فيزعمون أن هذا الكون لا يستند في عظمته إلى تدبير إلهي، وإنما يقوم بتدبير نفسه. وهؤلاء هم الدهريون الذين عبروا عن مذهبهم الفاسد بقولهم: إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر. وقد نعى القرآن الكريم عليهم هذا الجهل حيث قال سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[3].

فالناس إزاء النظام الكوني ينقسمون فريقين مختلفين. فريق القائلين بالتدبير الإلهي أو العناية الإلهية وهم الذين يؤمنون بالغيب.

والفريق الآخر القائلون بالمصادفة أي المتنكرون لعالم الغيب.

وقد زادت موجة الإلحاد الحديثة في أوربا لأسباب هي :

١ـ الطغيان الروحي ويتمثل ذلك في تقديس رجال الدين .

٢ـ الطغيان العقلي والفكري ويتمثل في الحجر على العقول من التفكير في أمور الدين ورفض أية مناقشة أو تساؤل أو محاولة لفهم نصوص الدين .

٣ـ الطغيان المالي من خلال تملك الكنيسة للإقطاعات والأراضي الزراعية وفرض الإتاوات - كانت هذه الظروف بمثابة تمهيد لرفض كل ما جاءت به الكنيسة التي قدمت الدين بصورة هزلية هزيلة عجزت عن حل أيسر مشكلات حياة الإنسان . ووضعت العراقيل بينه وبين الاتصال بخالقه . وفي الوقت نفسه لم تقدم له الفهم الذي يقنع عقله ويرضي نفسه ويغني روحه .

إن غياب الدين الحق يحدث في النفس فراغًا رهيبًا يدفع بالإنسان إلى الانسلاخ من دينه والبحث عن بديل . فبدأ العقل المتحرر من سلطان الكنيسة بوضع الفلسفات التي تناقش الدين وتحلله وتقيم الأدلة على بطلانه أو على صحته .

وقد انتهى هذا التأمل بفريق من المفكرين إلى القول بوجود عالم الغيب ، بينما انتهى بفريق آخر إلى رفض الإيمان بالله ورفض عالم الغيب .

ومن هنا وجب على العلماء التصدي لمثل هذه المذاهب والأفكار بصورة علمية دقيقة بعيدة عن التعصب والسطحية وبأسلوب هادئ رصين يبدأ بعرض شبهاتهم وتحليلها ، وينتهي بنقدها وتقويمها وتفنيدها بما تعتمد عليه من أسس ومرتكزات . والتصدي لمثل هذه الموضوعات خدمة ضرورية للعقيدة الإسلامية ، وهذا ما أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية حين قال : « من لم يجادل أهل الباطل حتى يقمع باطلهم لم

يكن أوفى الإسلام حقه، فيقمع باطلهم بالعقل ويبين صحة مذهبه بالعقل والنقل »[٤].

وقد طبق شيخ الإسلام نفسه كلامه هذا حين تصدى للفرق الضالة في عصره وهذا يتفق تمامًا مع المنهج الإسلامي الحكيم فقد عرض القرآن الكريم مذاهب الضالين من أهل الكتاب وعقائد الوثنيين ثم بين فساد تلك المذاهب وبطلان هذه العقائد بأقوى الحجج وأقوم البراهين.

بل لقد حثنا سبحانه وتعالى على ترسُّم هذا المنهج الرائع في إبطال العقائد الضالة وإقامة الحجة الواضحة على فرق المبطلين.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[٥].

ويقول: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾[٦] والجدال يستهدف إقامة الحجة ويقوم قبل ذلك على أساس الفهم الواعي للمذهب الباطل والعقيدة الفاسدة.

وهذه دراسة استعرضتُ فيها أهم الشبه التي يثيرها الماديون في إنكار الغيبيات وحصر نطاق الوجود في العالم المادي وقد ناقشتها وبينت ما فيها من مغالطات وأوهام.

وقد ذكرت أن الله سبحانه وتعالى قد جعل هذا العالم المخلوق دليلاً على وجوده كما جعل التناسق في نظامه دليلاً على وحدانيته.

والعالم قسمان: غيب وشهادة.

فعالم الشهادة هو ما يقع تحت مجال الحواس وهذه الحواس سبيلنا للتعرف على موجودات عالم الشهادة والعقل هو أداة الحكم في ذلك.

وأما عالم الغيب فهو ما لا يقع تحت

مجال الحس المباشر أو غير المباشر بالنسبة لنا وإن كان هذا لا يعني أن عالم الغيب ليس موجودًا إذ من القواعد المقررة أن عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود.

وفي هذا إشارة إلى خطأ الذين جعلوا العالم قسمين: المحسوس والمعقول.

والمعقول في الحقيقة ما كان في العقل. وأما الموجودات الخارجية فيمكن أن ينالها الحس وأن يوقف الإحساس بها على شروط متيقنة الآن، على حد تعبير شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وطريق معرفتنا لكل ما يتعلق بعالم الغيب هو الخبر الصادق عن المعصوم قرآن وسنة[٧].

وبذلك تظهر لنا أهمية الإيمان بالغيب فهو صفة المتقين بل هو شامل أعظم أركان الإيمان.

وبهذا يرتقي هذا المخلوق إلى مستوى الإنسانية الكريمة بينما يهبط كل من يتنكر للغيب إلى مستوى البهيمة ويصبح إنكار الغيب إلحادًا في الدين ونقصًا في العقل وعائقًا أمام التقدم العلمي نفسه. هذا وأسأل الله سبحانه أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم ويقبله مني ويثقل به موازين أعمالي يوم لا ينفع مال ولا بنون، وأسأل الله أن يمنحني عونه وتوفيقه إنه نعم المولى ونعم النصير ويغفر لي ما وقعت فيه من تقصير، وما قارفه قلمي من زلات إنه غفور رحيم ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٨].

والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تفنيد شبهات منكري الغيب

من هم منكرو الغيب؟ وما الذي دعاهم للإنكار؟ وما البراهين التي اعتمدوا عليها؟ وهل منها شيء يصلح ويثبت أمام البحث العلمي النزيه وأمام الحق الذي لا يميل مع هوى متبع ولا تعصب مذهبي؟.

المنكرون للغيب أو الملحدون أو الماديون أو الدهريون ألفاظ متعددة لمسمى واحد. فهم منكرون للغيب لضيق أفقهم وحصرهم له في إطار المحسوسات والمرئيات، وهم ملحدون لأنهم انحرفوا عن الحق وابتعدوا عن الصواب، وهم دهريون لما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾[٩].

وهم طبيعيون لأنهم يقولون بالطبيعة الفاعلة: (وقالوا إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر)[١٠].

وهم ماديون لأنهم يهتمون بإشباع الجانب المادي في الإنسان من الأكل والشرب والجنس وحيازة المال ويقولون بالحتمية المادية التاريخية ويقول ماركس: لا إله والحياة مادة.

ومنكرو الغيب فئة قديمة وهم قد وجدوا على مر العصور وقولهم واحد وفكرتهم واحدة مهما اختلفت الأسماء وتعددت العبارات.

والذي ينبغي أن نلفت النظر إليه أن الإلحاد في بعض أدواره ردّة فعل لتعصب ديني وتزمت متطرف أو أنه ظهر في فترات القلق النفسي والترف الحضاري والغرور العلمي.

وفي القرنين ١٨ و١٩ الميلاديين ظهرت أكبر موجة إلحاد في التاريخ

الحديث ويمكن تلخيص الأطوار التي مرت بالإلحاد فيما يلي:

١ـ تحريف الإسلام النازل على سيدنا عيسى وتغيير الإنجيل ومزج العقيدة الصحيحة بالفلسفة اليونانية والعقائد الوثنية الرومانية مما أدى إلى التثليث.

٢ـ طغيان الكنيسة خلال القرون الوسطى للميلاد وسيطرتها على شؤون الدين والدنيا واعتناقها لفلسفة أرسطو واعتبارها جزءاً من العقيدة، وتكفير معارضيها أو من يرى خطأها والحجر على حرية العلماء ومنعهم من البحث العلمي الحر مما جعل أوربا في القرن الخامس عشر الميلادي لا تزيد عن أوربا في القرن الخامس قبل الميلاد لا تزن في ميزان التقدم العلمي شيئًا يذكر.

٣ـ أدى ذلك إلى قيام صراع مرير بين رجال العلم في أوربا وبين رجال الدين والكنيسة[١١].

٤ـ استبدت الكنيسة وامتد طغيانها إلى العلماء من أمثال جاليليو وجرادنو وبرونو وكوبرنيك.

٥ـ كان رد الفعل لدى العلماء الشك في عقيدة الكنيسة ودينها وهاجموا الأديان عمومًا، وأدى ذلك إلى إنكار الغيبيات والاقتراب من المادية البحتة والكفر بالإله. يقول فولتير (١٧٨٨م) في هذا المعنى: (إذا رأيت اثنين يتناقشان في موضوع ولا يفهم أحدهما الآخر، فاعلم أنهما يتناقشان في الميتافيزيقا..) إلى آخر هذه الموجة من السخرية[١٢]!.

نعم لقد كانت الكنيسة في العصور الوسطى وبداية العصر الحديث تسلك سياسة تناقض الأخلاق كما تناقض العقل بما آل إليه أمرها من استغلال العباد والسيطرة على رقابهم ونهب أموالهم بشتى الطرق رافعة شعارات سماوية تتناقض مع العقل كمسألة الغفران

ومسألة استحالة الخبز والخمر إلى جسم المسيح ودمه من جهة ومعاداتها لكل جديد يتوصل إليه الفكر الإنساني.

إن هذه السياسة قد جعلت الكثير من أهل الفكر ينقمون على الكنيسة ويكفرون بها بل إن كفرهم بها تعدى إلى الكفر بما تدعو إليه من مسائل الغيب باعتبار أن من فقدت الثقة به في شيء فقدت الثقة به في كل شيء فاعتبر لذلك هذا الدين الذي تدعو إليه الكنيسة إنما هو من باب الترهات والزيف[١٣].

يقول الشيخ أبو الحسن النّدوي – رحمه الله –:

«ولم يكتف رجال الدين بما أدخلوه في كتبهم المقدسة بل قدسوا كل ما تناقلته الألسن واشتهر بين الناس، وذكره بعض شراح التوراة والإنجيل ومفسريها من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية وصبغوها صبغة دينية وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التي يجب الاعتقاد بها ونبذ كل ما يعارضها وألفوا في ذلك كتبًا وتآليف وسموا هذه الجغرافية التي ما أنزل الله بها من سلطان الجغرافية المسيحية. وعضوا عليها بالنواجذ وكفّروا كل من لم يدن بها»[١٤]، بالإضافة إلى ذلك ظهور المكتشفات الهائلة نتيجة النهضة العلمية وما نتج عنها من الثورة الصناعية الأمر الذي ترتب عليه الكفر بالأديان عامة والثقة الكاملة في كل إنجازات العلم بحجة أن الحق والخير إنما يأتيان عن طريق القوانين العلمية. وكل ما سوى العلم إنما هو وهم لا حق فيه ولا خير ومن ذلك الدين الذي لم يقدم للإنسانية ما قدمه العلم في فترة قصيرة.

اختمرت هذه المعاني في العقول وتضافرت فيها النقمة على الكنيسة وما تدعو إليه مع الانبهار بالعلم ونتائجه لتبرز في شكل فلسفي، خلاصته أن المادة هي الحقيقة الكبرى وكل ما وراءه من

الغيب إنما هو زيف وكل ما يقع في الطبيعة وكل ما يقع في المجتمع وكل ما يقع في النفس إنما هو راجع إلى سبب مادي وكلُّ ما يقوله رجال الدين عن القوى الغيبية إنما هو (صك لا رصيد له في المصرف) .

هذه التوترات أدت إلى تكوين مذاهب هدامة ما لبثت أن تسربت إلى العالم الإسلامي في أشكال شتى وأساليب مختلفة تدعو إلى نكران الغيب وفتح المجال مع حرية الرأي أمام وسائل الإعلام داعية للتفلت، وظهرت الأقلام المأجورة والدعاة المرتزقة للإلحاد وكان أبرزهم في العالم العربي الدكتور شبلي شميّل[١٥] . وظهر تيار ينادي بتقليد أوربا في كل شيء لنصل إلى ما وصلوا إليه من التمدين والتحضر .

ورفعوا شعارًا مفاده أن أوربا تقدمت لأنها تركت الدين ظهريًا وراءها ولهذا طالبوا - أي هذا التيار - بالثورة على الدين لنتقدم حيث أن أوربا تقدمت بثورتها على الدين . وما علموا أن أوربا غير بلاد المسلمين وأن دين أوربا يختلف عن ديننا .

وهؤلاء لم يفرقوا بين الدين أصلاً وبين الذين ادعوا تمثيله، إن اضطهاد رجال الكنيسة للعلماء أمر غريب في ديننا إذ لم يثبت في التاريخ أن عالمًا اضطهد لقوله بنظرية علمية أو اكتشاف عقلي بل كل الاحترام والتبجيل للعلم والعلماء ، ولم تخل مجالس الحكام من جلسات العلماء بل لم يكن عندنا فصل بين الدين والدولة وليس هناك تناقض بين أحكام كتابنا وما جاء به العلم كما سنوضح فيما بعد .

أهم الشبه المثارة حول إنكار الغيبيات

١ـ إنكار وجود الله :

الله هو الحق واليقين لذا لا نعجب أن المنكرين للغيبيات يسخرون من الذين

يعتقدون بوجود إله يقول كارل ماركس (لا إله والحياة مادة)، وأما لينين فيقول: (ليس صحيحًا أن الله هو الذي ينظم الأكوان إنما الصحيح أن الله فكرة خرافية اختلقها الإنسان ليبرر عجزه) ويقول ستالين: (إن فكرة الله خرافة وإن الإلحاد مذهبنا)[١٦].

وهم ينكرون أيضًا بقية الغيبيات فهم ينكرون الجنة والنار والبعث والجن والملائكة.. إلخ. يقول جوليان هكسلي: (والآلهة والجن والأرواح وغيرها من الأشياء الصغيرة الروحية من عمل الإنسان وناشئة حتمًا عن نوع من الجهل ودرجة من العجز أمام بيئته الخارجية)[١٧].

وفي حوار لابن أبي العوجاء مع الإمام جعفر الصادق قال: « يا أبا عبد الله لقد قلت فأحلت على غائب »[١٨].

وسأل الديصاني جعفر الصادق فقال: « تزعمون أن لنا خالقًا فدلني عليه ».

وقد قال الله في القرآن عن الكافرين في إنكارهم الإله وكيف أن حجتهم تقوم على أنهم لا يرونه وأنهم لا يؤمنون إلا بما يرونه قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾[١٩].

الكافرون الذين بعث فيهم النبي محمد ﷺ لم ينكروا الخالق كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ ....﴾[٢٠].

وقال عن اليهود: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾[٢١] وقال: ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾[٢٢].

ونحن المسلمين نرى أن هذه الأفكار هراء لا تقوم على عقل أو منطق لما يأتي:

لو أنكرنا وجود الله والملائكة والبعث والحساب والجنة والنار..إلخ. لمجرد أنها أشياء غير مادية وغير محسوسة لكان معنى هذا إنكار الكهرباء لأنها غير محسوسة والذي يحس فقط إنما هو أثرها وهذه أرواحنا السارية في أجسامنا لا نسمعها ولا نراها ولا نلمسها ولا نشمها ولا نتذوقها ومع ذلك فهي موجودة فينا حقًا نؤمن بها ونحرص عليها كل الحرص بل بها نحس وبها نتألم وبها نفسر وفيها بقاؤنا.

ونحن وإن لم نحس بأرواحنا إحساسًا ظاهرًا فقد آمنا بها استدلالاً من آثارها فينا بل علمنا بها أمر بدهي لا يحتاج إلى دليل.

وهل يمكن للحواس الخمس أن تدرك وتعرف الأحاسيس بالحزن والفرح؟ فالشقاء والسعادة أمر لا يدرك بالحواس الخمس وإنما يدرك بشيء آخر هذا الشيء الآخر هو الذي به تدرك وجود الله، بجانب الحواس الخمس التي بها نعرف الله بآثاره.

والحواس ليست بالمقياس الدقيق لتفسير وتقويم الآثار الخارجية كمقياس الحرارة - الترمومتر - المادي فهذه الحواس ترينا القمر بحجم الرغيف كما ترينا التقاء السماء بالأرض أو بالبحر عند خط الأفق[٢٣].

وإذا كانت الحواس ليست بالمقياس الدقيق إذن فهناك مقياس آخر غير الحواس هو الذي به أدركنا وجود الله.

وهل نعتبر عدم رؤية الكفيف للشمس دليلاً على عدم وجودها؟ إن «بعض الناس لا يؤمنون بالله لمجرد أنهم لا يستطيعون رؤيته ونسوا بأن عجزهم هذا ليس دليلاً على عدم وجوده إذا علمنا أنهم يؤمنون تمامًا بالإلكترون فنحن في الوقت الحاضر نؤمن بكيانات لا

نعرفها إلا بآثارها كوجود بعض الجزئيات قبل الإلكترونات والبروتونات فهذه الجزئيات لا يمكن ملاحظتها»[٢٤].

إن الطيور المهاجرة تعرف طريقها بدون حواس[٢٥].

ويقول العقاد[٢٦] عن هؤلاء الماديين: «ويجيء الماديون في الزمن الأخير فيحسبون أنهم جماعة تقدم وإصلاح للعقول وتقويم لمبادئ التفكير. والواقع أنهم في إنكارهم كل ماعدا المادة يرجعون القهقهرى إلى أعرق العصور في القدم ليقولوا للناس مرة أخرى إن الموجود هو المحسوس وإن المعدوم في الأنظار والأسماع معدوم كذلك في ظاهر الوجود وخافيه. وكل ما بينهم وبين همج البداءة من الفرق في هذا الخطأ أن حسَّهم الحديث يلبس النظارة على عينيه ويضع المسماع على أذنيه ويحسبون على هذا أنهم يلتزمون حدود العلم الأمين حين يلتزمون حدود النفي»[٢٧].

ولابن حزم إفحام لهؤلاء الماديين يقول: «هل تدرك حقيقة شيء عندكم من غير طريق الرؤية والمشاهدة أو لا يدرك شيء من الحقائق إلا من طريق الرؤية فقط ؟

فإن قالوا إنه قد تدرك الحقائق من غير طريق الرؤية والمشاهدة تركوا استدلالهم وأفسدوه إذ قد أوجبوا وجود أشياء من غير طريق الرؤية والمشاهدة وقد نفوا ذلك قبل هذا فإذا صاروا إلى استدلال نُوظروا في ذلك إلا أن دليلهم هذا على كل حال قد بطل بحمد الله. فإن قالوا لا يدرك شيء إلا من طريق المشاهدة قيل لهم فهل شاهدتم شيئًا قط لم يزل ؟ فلابد من نعم أو لا فإن قالوا لا صدقوا وأبطلوا استدلالهم، وإن قالوا نعم كابروا وادعوا ما لا سبيل إلى مشاهدته إذ مشاهدة قائل هذا القول للأشياء هي ذات أول بلا شك وذو الأول هو غير الذي لم يزل لأن الذي لم يزل هو الذي لا أول

له ولا سبيل إلى أن يشاهد ما له أول ما لا أول له مشاهدة متصلة فبطل هذا الاستدلال على كل وجه»[٢٨].

وهكذا يلزم ابن حزم الماديين بالإيمان بما وراء الحواس. وللماديين شبهات كثيرة يستندون إليها في دعوى الإلحاد والإنكار لوجود الله، منها أن تعجز كما يقولون عن تصور كنه إله وراء الكون وما دامت العقول تعجز - كما يقولون - عن تصور كنه إله وراء الكون فهو إذن غير موجود.

والواقع أننا نسلم بأن العقل لا يستطيع أن يتصور أو يدرك كنه الذات الإلهية لأن العقل له حدود ينبغي أن يقف عندها وله مجال معين يستطيع أن ينتج فيه وهو العالم الطبيعي. أما ما وراء الطبيعة فالعقل قاصر عن إدراك شيء منه بل إن العقل لا يدرك من ظواهر العالم الطبيعي أو الأشياء إلا ظواهرها. وهذا ما قرره الفيلسوف الألماني (كانت) في قوله: «إن غاية ما يمكن للعقل أن يفعله من الأشياء هو عوارضها وآثارها» من ذلك مثلاً الضوء فقد قرر العلماء له أحكامًا كثيرة فصَّلوها في علم خاص به ولكن لم يستطع واحد منهم أن يفهم حقيقته أو كنهه، كذلك لم يستطع الإنسان أن يعرف حقيقة أقرب الأشياء إليه وهي نفسه ولم يصل العقل إلى إثبات شيء حولها يمكن الاتفاق عليه، وإنما مبلغ جهد الإنسان أنه عرف أنه موجود حي له شعور وإرادة.

وكل ما أحاط به من الحقائق الثابتة راجع إلى تلك العوارض التي وصل إليها ببديهته. أما كنه شيء من ذلك فهو مجهول عنده ولا يجد سبيلاً للعلم به[٢٩].

وإذا كان العقل يعجز عن إدراك كنه الأشياء المادية فكيف يطمع في أن يدرك كنه الحقيقة الإلهية ؟ وعلى هذا فإن عدم إدراك العقل لِكُنْهِ الذات الإلهية لا يعني ولا يستلزم عدم وجود هذه الذات. إن

الملحدين وقد بلغوا منزلة عظيمة في العقل والعلم يعترفون بعجزهم عن معرفة كثير من أسرار الكون وحقيقة المادة التي بين أيديهم وحقيقة الحياة وحقيقة العقل والإدراك والوسيلة التي يتم بها الاتصال بين المادة والعقل، فإذا كان هذا شأنهم في معرفة أقرب الأشياء إليهم فهل يطمعون أن يصلوا بعقولهم إلى معرفة حقيقة الله ؟

وهل من المنطق أن يحملهم على إنكار وجود الله قصور عقولهم عن تصوره وإدراكه على الصورة التي تعودوا أن يدركوا بها الأجسام المادية ؟

وقد رد على الملحدين أحد الفلاسفة المحدثين وهو الفيلسوف الألماني ليبنيتز فقال لهم : إذا كانت عقولكم لا تتمكن من تصور هذا الإله فلا يلزم من ذلك عدم وجوده، إذ إن كثيرًا من الحقائق لم يتمكنوا من تصورها حق التصور وتكون في الحقيقة موجودة ويقوم الدليل العقلي على وجودها، والجزم منكم بأنه لا يمكن وجود شيء متصف بتلك الصفات بريء من الجسمية والمادية قد نشأ معكم من (قياس التمثيل) بما أطلقتم عليه من الأشياء، وهذا القياس ليس دليلاً قاطعًا بل هو دليل خادع يخدع العقول حتى يجعلها تحكم على الشيء بأحكام غيره مع الفارق بينه وبين ذلك الغير. فعدم اقتداركم على تصور حقيقة الله لا يفيد استحالة وجوده وقياسكم إياه على ما شاهدتموه في العالم المادي هذا قياس مغلوط لوجود فارق بينهما.

ويكفي العقول أن تستدل على وجود الله بصفاته وآثاره. وكل ما في العالم من وجود ونظام وإتقان وإحكام دلائل قاطعة على وجود الله وعلمه وقدرته وحكمته[٣٠].

الصدفة :

ومما احتج به الملحدون على إنكار الإله والغيبيات أن هذا الكون لا يحتاج

إلى موجد يوجده بل وجد هذا الكون صدفة دون تقدير ولا تدبير بل محض اتفاق فلا خالق وراءه. وهذه من أوهى الحجج.

الصدفة فكرة واستدلالاً:

ماذا تعني الصدفة؟ تعني فكرة الصدفة أن مبدأ الحتمية والسببية ليس مبدأ مطلقًا بل لابد من إفساح المجال للاحتمال في الظواهر الطبيعية. فهناك فرق بين نوعين من الظواهر. ظواهر يبدو أنها تخضع لقوانين تصدُق دائمًا بحيث يمكن التنبؤ بحدوثها متى تحققت شروط وجودها وظواهر أخرى لا تخضع لأي قانون.

والظواهر الأخيرة هي المعبرة عن منشأ حصوله بالصدفة وذكر القائلون بجواز الصدفة في حصول بعض الحوادث الكونية نماذج عديدة تأييدًا أو تأكيدًا لهذا الجواز. منها: أنك تلتقي صديقًا أو تعثر على سلعة دون أن تعمل للقائك به أو عثورك عليها ما يوجب اللقاء والعثور ومنها كثرة الكشوف والاختراعات التي حصلت على يد أصحابها بدون أي تصميم وتخطيط سابقين على حصول الاكتشاف مثل اكتشاف الكهرباء وأمثاله التي حصلت صدفة.

وقد أيد أنصار الصدفة ما يرومون تحقيقه بما أثبته علم الميكانيك الحديث وذلك على ضوء قوانين (نيوتن) في الحركة فقد تحقق أن الحركة إذا حدثت، تبقى وتستمر دون حاجة في بقائها واستمرارها إلى سبب وإن رأينا حركة لم تستمر فذلك لسبب خارجي كضغط الهواء أو احتكاك الجسم المتحرك بالأرض أو غير ذلك من موانع الاستمرار التي لو أمكن للجسم المتحرك أن يتحرر منها لاستمرت حركته دون انقطاع وبدون سبب وإذا جاز استمرار الحركة دون سبب جاز حدوثها دون سبب وحيث جاز استمرار الحركة بل وجودها دون

سبب جاز حدوث غيرها من الموجودات الأخر دون سبب أي (صدفة).

ولذا يقول (هكسلي) :

«لو جلست ستة من القرود على آلات كاتبة وظلت تضرب على حروفها ملايين السنين فلا تستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير. فكذلك كان الكون الموجود الآن نتيجة لعمليات ظلت تدور في المادة لبلايين السنين».

وبهذا الاستدلال!! أثبت هكسلي رجوع كافة تنوعات الكون إلى الصدفة.

أما عن أصل الكون كيف وجد؟ فيجيبنا عن هذا السؤال عالم أمريكي آخر إذ يقول :

إن نظرية الصدفة ليست اختراعًا منا، وإنما هي نظرية رياضية عليا وهي تُطبق على الأمور التي لا تتوفر في بحثها معلومات قطعية وهي تتضمن قوانين صارمة للتمييز بين الباطل والحق وللتدقيق في إمكان وقوع حادث من نوع معين وللوصول إلى نتيجة هي معرفة مدى إمكان وقوع ذلك الحادث عن طريق الصدفة[٣١]. وحيث إن السؤال عن كيفية وجود الكون وعن موجده ولم تتوفر لدى هذا العالم معلومات قطعية فلا بد من القول بأن الكون وجد صدفة.

مناقشة القائلين بحدوث العالم صدفة

الصدفة لها مدلولان :

الأول : الصدفة في القصد، بمعنى أن الطبيعة تتكون من مجموعات من الظواهر التي تخضع كل منها لقوانين تحددها تحديدًا ضروريًا.

وقد تتداخل هذه المجموعات - في لحظة معينة - فتؤدي إلى نتائج غير متوقعة، كما يحصل ذلك في حال مرور رجل ذاهبًا إلى عمله فيسقط عليه حجر من يد عامل يشتغل في بناء عمارة فيؤدي هذا الحادث إلى إماتة الرجل المار.

إن مثل هذا الحادث حصل صدفة، مع أنه وليد مجموعة من الأسباب الطبيعية، فدواعي مرور الرجل ودواعي عمل العامل وصلابة الحجر وتكوين الإنسان وغير هذه الأسباب كلها هي التي حققت موت الرجل ولكن صح التعبير عن حصول هذا الحادث بـ(الصدفة) باعتبار عدم القصد في تحقيق هذا الحادث.

ومن هذا النوع من مدلولي الصدفة ما مثّلَ به مدعوها من اللقاء بصديق والعثور على سلعة في الطريق وغيرهما فإن الأسباب الطبيعية في هذين الحادثين وأمثالهما متوفرة سوى أنك عندما غادرت محلك لم تكن قاصدًا لقاءً بصديق ولا الصديق قاصدًا لقاءك ولم تكن قاصدًا أن تعثر على سلعة لك أو للغير ثم حصل لقاؤك بالصديق وعثورك على سلعة مع توفر كافة الأسباب الطبيعية في ذلك سوى القصد. ومثل هذا لا ينافي قانون السببية بحال، ولو كان الأمر كما يدعون لصح لنا أن نبطل قانون الحتمية في مسألة غليان الماء إذا بلغت حرارته (١٠٠م) في ضغط من الهواء قدره (٧٦ سم زئبق) بحجة أن الغليان حصل بوضع الحداد حديدته المحماة في الماء لأجل تبريدها لا لغرض إغلاء الماء فحصل الغليان.

وإذا لم يكن الغليان مقصودًا فقد حصل وبدون سبب وهذا ما يأباه العلم والإنصاف. ومن هذا القبيل أيضًا ما مثل به القائلون بالصدفة من كثرة الكشوف والاختراعات، فإن هذا مما توفرت فيه الأسباب الطبيعية من ذهنية المخترع وانتباهه ووجود المواد وحركتها وغير ذلك مما لابد من توفره سوى أن المكتشف - حسب الفرض - لم يكن قاصدًا لهذا الكشف وإنما حصل تلقائيًا. والصدفة بهذا المعنى أجنبية عما نحن بصدده وهو، كيف وجد العالم بعد أن

كان عدمًا؟

الثاني: الصدفة في الإيجاد، بأن يخلق الشيء بعد العدم بدون علة خارجية وهي بهذا المعنى مركز بحثنا واحتجوا على جوازها بقانون نيوتن وإليك نص هذا القانون وتحليل النص:

(إن كل جسم يستمر على حالته من السكون أو الحركة بسرعة ثابتة إلا إذا أثرت عليه قوة غير متزنة).

وخلاصة هذا القانون: إن الجسم الساكن لسبب، يبقى في مكانه ساكنًا ما لم تؤثر عليه قوة تحركه. وإن تحرك بسبب قوة حركته يبقى متحركًا بتلك القوة ما لم تؤثر عليه عوامل خارجية، من احتكاك أو جاذبية أو غيرهما.

وهذه في نظر نيوتن خاصية في الأجسام تسمى (الاستمرارية) إذ إن نيوتن يربط بداية الحركة أو السكون بسبب ثم يعلل بقاء كل منهما بخاصية في الأجسام يسميها (الاستمرارية).

وهذا كما ترى يباين الصدفة تباينًا كليًا ولا يفوتنا ونحن بهذا الصدد أن نداعب (هكسلي) لأن فرضيته إلى المداعبة أقرب منها إلى الجد !!

نقول له: لو جلست مع القردة سابعًا وشددت عينيك دون سابق معرفة منك بحروف الطابعة وكيفية الضرب عليها فهل تستطيع أن تكتب اسمك في ملايين السنين !! هذا واسمك منظم من خمسة أحرف. فكيف بالعمليات المعقدة في الكون؟

إن الصاروخ مركب من ١٠٠,٠٠٠ قطعة - على ما قيل - لو اختل ترتيبها الهندسي لما حصل انطلاقه. فلا يمكن أن يوجد صدفة.

أما مخ الإنسان - وهو من عمليات الكون المعقدة - مركب من ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ قطعة عصبية مرتبة ترتيبًا دقيقًا ومؤدية لفعاليات عجيبة فهل وجد صدفة نتيجة لعمليات عمياء ظلت تدور

في المادة لملايين السنين كما تقول !!

إن العلماء لم يهملوا حساب احتمال وجود الشيء صدفة فقد ضرب العالم الأمريكي الشهير (أ. كريس موريسون) في (كتاب العلم يدعو للإيمان) مثلاً إذ يقول:

لو تناولت عشر قطع وكتبت عليها الأعداد من واحد إلى عشرة ثم رميتها في جيبك وخلطتها خلطًا جيدًا ثم حاولت أن تخرج منها من الواحد إلى العاشر بالترتيب العددي بحيث تلقي كل قطعة من جيبك بعد تناولها مرة أخرى. فإمكان أن تتناول القطعة رقم (١) في المحاولة الأولى هو ١/ ١٠ وإمكان أن تتناول القطعة رقم (١، ٢) متتابعين هو ١/ ١٠٠ وفرصة سحب البنسات التي عليها أرقام (١، ٢، ٣.) متتالية هي بنسبة ١/ ١٠٠٠ وهكذا حتى تصبح فرصة سحب البنسات بترتيبها الأول من ١ - ١٠ هي بنسبة واحد من عشرة بلايين محاولة[٢٢].

ويقول (كلودم هاثاواي) :

لقد اشتغلت منذ سنوات عديدة بتصميم مُخ إلكتروني يستطيع أن يحل بسرعة بعض المعادلات المعقدة المتعلقة بنظرية (الشد في اتجاهين) ولقد حققنا هدفنا باستخدام مئات من الأنابيب المفرغة والأدوات الكهربائية والميكانيكية والدوائر المعقدة ووضعها داخل صندوق، وبعد اشتغالي باختراع هذا الجهاز سنة أو سنتين وبعد أن واجهت كثيرًا من المشكلات التي تطلبها تصميمه ووصلت إلى حلها، صار من المستحيلات بالنسبة إليَّ أن يتصور عقلي أن مثل هذا الجهاز يمكن عمله بأية طريقة أخرى غير استخدام العقل والذكاء والتصميم وليس العالم من حولنا إلا مجموعة هائلة من التصميم والإبداع والتنظيم وبرغم استقلال بعضها عن بعض فإنها متشابكة متداخلة وكل منها أكثر تعقيدًا في كل ذرة من ذرات تركيبها من

ذلك المخ الإلكتروني الذي صنعته فإذا كان هذا الجهاز يحتاج إلى تصميم أفلا يحتاج ذلك الجهاز الفسيولوجي الكيمي البيولوجي الذي هو جسمي والذي ليس بدوره إلا ذرة بسيطة من ذرات هذا الكون اللانهائي في اتساعه وإبداعه إلى مبدع يبدعه؟[٣٢]

ويقول عالم الطبيعة الدكتور (فرانك آلن) :

.. ولننظر الآن إلى الذي تستطيع أن تلعبه المصادفة في نشأة الحياة إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية وهي تتكون من خمسة عناصر هي : الكربون ، والأيدروجين، والنيتروجين، والأوكسجين والكبريت، ويبلغ عدد الذرات في الجزيء البروتيني الواحد (٤٠٠٠٠) ذرة.

ولما كان عدد العناصر الكيماوية في الطبيعة (٩٢) عنصرًا موزعة كلها توزيعًا عشوائيًا فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون جزيئًا من جزيئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطًا مستمرًا لكي تؤلف هذا الجزيء . ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد .

وقد قام العالم الرياضي السويسري (تشارلز يوجين جاي) بحساب هذه العوامل جميعًا فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزئ بروتيني واحد إلا بنسبة واحد إلى (١٠)[١٦٠] أي بنسبة واحد إلى رقم عشرة مضروبًا في نفسه مائة وستين مرة وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم حدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيئًا واحدًا أكثر مما يوجد في هذا الكون بملايين المرات.

ويتطلب تكوين هذا الجزيء على

سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين وعلى ذلك فإنه من المحال عقلاً أن تتألف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئًا بروتينيًا واحدًا.

ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيماوية عديمة الحياة ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذي لا ندري من كنهه شيئًا[٣٤].

ونتعلم أن الحساب السابق لتكوين الجزيء البروتيني الواحد مع ما يصل إليه من البعد، لا يعني حتمية حصول الجزيء عند حصول تلك المعادلات في تلك المدة السحيقة، بل من الممكن حتى بعد ذلك أن لا يوجد الجزيء الداخل في تركيب الخلية.

ولهذا يقول العالم الفرنسي (الكونت دي نواي) ما تلخيصه:

إن مقادير الوقت لكمية المادة والفضاء اللانهائي التي يتطلبها حدوث مثل هذا الإمكان هي أكثر بكثير من المادة والفضاء الموجودين الآن وأكثر من الوقت الذي استغرقه نمو الحياة على ظهر الأرض وإن حجم هذه المقادير التي سنحتاج إليها في عملية (تكوين جزيء بروتيني) لا يمكن تخيله وتخطيطه في حدود العقل الذي يتمتع به الإنسان المعاصر فلأجل وقوع حادث على وجه الصدفة من النوع الذي ندعيه سوف يحتاج كونًا يسير الضوء في دائرته ٨٢/ ١٠^١٠ سنة ضوئية أي (٨٢ صفرًا إلى جانب ١٠ سنين ضوئية).

وهذا الحجم أكبر بكثير جدًا من حجم الضوء الموجود فعلاً في كوننا الحالي، فإن ضوء أبعد مجموعة للنجوم في الكون يصل إلينا في بضعة ملايين من السنين الضوئية فقط.

وبناء على هذا فإن فكرة آينشتاين عن اتساع هذا الكون لا تكفي أبدًا لهذه العملية المفترضة.

أما ما يتعلق بهذه العملية المفترضة نفسها، فإننا سوف نحرك المادة المفترضة في الكون المفترض بسرعة خمسمائة تريليون حركة في الثانية الواحدة، لمدة ٢٤٣×١٠^١٠ بليون سنة أي ٢٤٣ صفرًا إلى يمين عشرة بلايين سنة ضوئية، حتى يتسنى حدوث إمكان وجود جزيء بروتيني يُمنح الحياة[٣٥].

ويقول دي نواي: يجب أن لا ننسى أن الأرض لم توجد إلا منذ بليونين من السنين، وأن الحياة في أي صورة من الصور لم توجد إلا قبل بليون سنة عندما بردت الأرض. هذا وقد حاول العلماء معرفة عمر الكون نفسه: وأثبتت الدراسة في هذا الموضوع أن كوننا موجود منذ خمسة بلايين سنة وهي مدة قصيرة حتى لا تكفي على أي حال من الأحوال لخلق إمكان وجود الجزيء البروتيني بناء على قانون الصدفة الرياضي[٣٦].

ويقول البروفيسور (إيدوين كونكلين):

إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة حادث اتفاقي شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم، نتيجة انفجار صدفي يقع في مطبعة[٣٧].

هذه آراء بعض العلماء في مسألة الصدفة وكأن القائل بها إذا أعجزه تفسير حادث من الحوادث كان قوله بالصدفة أهون عليه من الاعتراف بالجهل ولذا قال العالم الأمريكي: «وهي أي - الصدفة - تطبق على الأمور التي لا تتوفر في بحثها معلومات قطعية»[٣٨].

ومن جهة أخرى فإن تجويز الصدفة يتنافى وقانون العليّة كيف وإنكاره ينسف كافة القوانين العلمية المبتنية على تعليل الظواهر بأسبابها الخاصة ونتيجة

ذلك الجهل المطلق حتى في الوجود المادي.

فما دامت الصدفة ممكنة فمن الممكن أن يكون إحساس بما يسمى بالموجودات الخارجية قد حدث في ذهن الصدفة بدون أن يكون انعكاسًا لواقع خارجي، ومآل ذلك إلى المثالية أو الشك المطلق وهذا باطل.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه تم القبض على متهم بنشر مقال مخل بالأمن العام، وقدم إلى المحاكمة فكان دفاعه: بينما أنا جالس في مكتبي. وإذا بحروف برزت من خزانة الحائط كحروف آلة الطابعة ثم أخذت بالانطلاق نحو محبرة كانت على المنضدة فانفتحت المحبرة ودخلتها الحروف واحدًا تلو الآخر وبعد تلوث كل حرف يخرج فيتجه نحو خزانة كانت في زاوية فيها ورق أبيض وإذا بالأوراق البيض المخزونة هناك تخرج واحدة بعد أخرى وتضرب عليها الحروف بانتظام حتى إذا اكتملت طباعة ورقة تقدمت أخرى بنفس العملية التي تمت بها طباعة الأولى وبعد نفاد الورق وكمال طباعته اتجهت الأوراق كسرب الطيور إلى خارج المكتب إلى الشارع حيث التصقت على أعمدة الأسلاك والجدران بالصورة التي شوهدت عليها مكتوبًا عليها المقال الذي اتهمت بنشره !!

إن هذه الإفادة غير معقولة ولا مقبولة إلا لدى المعتوهين، لا لشيء، سوى أن صاحبها يدعي صيرورة حدث بسيط - نشر مقال صحيفة واحدة - دون تمامية علته، مع حصول معظم مقومات نشر المادة ومنها المادة التي يمكن وجود الحروف منها والمداد والورق، غير أن تنظيمها بالشكل المطلوب يحتاج إلى أشياء وراء ما كان متوفرًا، لهذا كانت الإفادة غير مقبولة. فكيف ينتظم الكون وما فيه من أنظمة أقل ما يقال في أقلها أنه أصعب تعقيدًا وأدق نظامًا من

كتابة صحيفة واحدة؟ ثم كيف يوجد بعد أن كان عدمًا من دون أية علة سابقة عليه لا مادية ولا صورية ولا غائية ولا فاعلية، إنْ هذا إلا كلام يصدر بلا روية أو بدواعي خاصة أصحابها أعرف بها[٣٩].

وقصة أحد الملاحدة مع أحد علماء الإسلام مشهورة[٤٠] ففي مجلس من مجالس بغداد تواعد الملحد والعالم في ساعة محددة، فحضر الملحد ولم يحضر العالم وبقي الجميع في الانتظار ساعات حتى كادوا ينفضوا وإذا بالعالم يدخل محييًا ويعتذر عن تأخيره بسبب عجيب فلما سألوه عن السبب قال لما انتهيت إلى ضفاف دجلة وأنا في طريقي إليكم رأيت شجرة ضخمة تهوي إلى النهر من تلقاء نفسها ثم شاهدتها تنقطع قطعًا متشابهة متشابكة منظمة ثم أبصرت هذه القطع تتلاقى ووتلاحم على شكل زورق ثم سال عليها القار ودخلت فيها المسامير فأصبحت زورقًا جميلاً رائعًا ثم رأيت هذا الزورق يقف عند الضفاف من تلقاء نفسه فإذا ركب به الناس سار بلا مجداف ولا سائق حتى وصل بهم إلى الجانب الآخر. فإذا ركب الناس من ذلك الجانب سار بهم إلى الجانب الآول وهكذا، وكان هذا هو العجب الذي رأيته وسبب لي التأخير وما إن أتم كلامه حتى ضحك الملحد بسخرية واستهزأ قائلاً إني لآسف من تضييع الوقت في انتظار هذا الرجل الأحمق السخيف فالتفت إليه العالم وقال إذا كان هذا غير ممكن عقلاً ومعتقده أحمق سخيف فكيف بوجود الأرضين والسماوات والكواكب والكائنات[٤١].

الطبيعة:

قد احتج الملحدون على إلحادهم وإنكارهم لذات الله بالطبيعة حيث قالوا إن الكون لا يحتاج إلى خالق بل الطبيعة ولا شيء غير ذلك.

فالعلم قد فسر لنا الأحداث والظواهر

تفسيرًا صحيحًا وإن ما يحدث في الكون من الأرض إلى السماء خاضع لقانون عام هو قانون الطبيعة فإذن الكون لا يحتاج في نظرهم إلى افتراض إله يدبر شؤون الكون وأحداثه.

تفنيد هذا الزعم:

الواقع ان زعمهم بأن الحوادث تحدث طبقًا لقانون الطبيعة وأنه لا حاجة لأن نفترض لهذه الحوادث إلهًا مجهولاً زعم خاطئ ولا يمكن أن يسلم لهم. وإذا كنا نسلم معهم بأن العلم كشف كثيرًا من أسرار الكون وأوضح لنا القوانين العلمية فإننا لا نعتبر ذلك تفسيرًا لظواهر الكون وأحداثه كما يُزعم. وإنما هو تفصيل وشرح لهذه الظواهر والأحداث بمعنى أن العلم لا يستطيع أن يكشف عن السبب فيما يحدث.

ولتوضيح ذلك نقول إن كل الظواهر لها قوانين طبيعية وقد اكتشف العلم كثيرًا من هذه القوانين كقانون الجاذبية وقانون التمدد بالحرارة والانكماش بالبرودة وغير ذلك وهذه القوانين لا تؤثر من نفسها بل لابد لها من قوة عليا تهيمن عليها وتوجهها وهذه القوة هي قوة الله.

إن الملحدين عندما يعجزون عن تفسير شيء ينسبونه إلى قانون عام يسمونه « قانون الطبيعة » وهو عندهم الحركات الداخلية للقوى الطبيعية والكيمائية فإذا ما قيل لهم: كيف تكون هذه القوى هادفة ومدبرة وكيف تنظم نشاطها حتى تطير الطيور في الهواء ويعيش السمك في الماء ويوجد الإنسان في الدنيا ويسيطر على ظواهرها الطبيعية؟ فإنهم يعجزون ولا يجدون جوابًا.

إن هؤلاء الماديين يقرون في دعواهم هذه أن هذا الكون لابد له من موجد والدليل على ذلك أنك لو سألتهم: من خلق السماوات والأرض والشمس

والقمر؟.

يقولون لك: الطبيعة.

من أوجد هذا الكون وما فيه من عجائب وأسرار ؟.

يقولون لك: الطبيعة.

من دبر هذه الأمور الفلكية والحيوية والغريزية ؟

يقولون لك: الطبيعة.

إذن فالطبيعة في نظرهم إله العصر المزعوم فهي الموجدة وهي الخالقة.

وهؤلاء الطبيعيون يشتركون مع المؤمنين في قضية لأنه لابد من موجد للكون فهم يقولون الطبيعة، والمؤمنون يقولون إن الموجد للكون هو الله سبحانه وتعالى.

وفي البداية نسأل عن ماهية هذه الطبيعة المزعومة إلهًا ؟.

وما هو مفهومها وما هي حقيقة تأثيرها في الوجود ؟

قال علماء اللغة: إن الطبيعة معناها الخلق والسجية وعند الماديين لا يخلو مفهومها من خلال كلامهم من أحد مفهومين:

الأول: أنها عين الأشياء - أي عين ذواتها - فالحيوان والنبات والجماد كل هاتيك الكائنات هي ذات الطبيعة[٤٢].

الثاني: أنها عبارة عن الخصائص المستكنة في الأشياء والصفات القاهرة فيها ومن هذه الصفات: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والملاسة والخشونة ومن خصائصها خصائص القابلية من حركة وسكون، وكون وفساد، ومن تزاوج وتوالد واغتذاء وغير ذلك.

فهذه الخصائص وتلك الصفات هي الطبيعة ولا تخرج عن التفسيرين فهي إما ذوات الأشياء أو خصائص وصفات الأشياء.

ولو أخذنا الطبيعة بالمفهوم الأول لوجدنا أن الحاصل أن الأرض خلقت الأرض أو السماء خلقت السما-

والجمادات صنعت نفسها[٤٢] وهذا خروج على قوانين العقل وأهمها قانون السببية الذي اعترفوا به، إذ إن السبب غير المسبب والفاعل غير المنفعل والسبب سابق على المسبب والمسبب متأخر عن السبب. ولكن كلامهم هذا يستلزم أن يكون السبب هو عين المسبب وأن يكون الشيء متقدمًا ومتأخرًا في آن واحد فهو متقدم باعتباره سببًا ومتأخر باعتباره مسببًا - فكأننا نقول أن كل كائن أوجد نفسه وفي كل كائن في الوسع أن نقول عنه. إنه الخالق والمخلوق والحادث والمحدث وهو كلام لا يقوله الأطفال فضلاً عن العقلاء والعلماء.

وللطبيعة أسرار خاصة مودعة في الكائنات الموجودة أودعه من جعل فيها هذه الخصائص:

فإن الماهيات والحقائق مجعولة بجعل جاعل لا أنها جعلت نفسها وهنا يحق لنا أن نسأل من الذي وضع هذه الصفات ومن الذي حدد هذه القابليات ؟؟

من ذا الذي وضع في الحبة قابلية الانتفاخ والانفلاق حين توضع في الماء والتراب ؟ ومن الذي أخرج منها الجذور والسيقان ؟.

ومن الذي أعطاها قابلية الإثمار ؟

لو قلنا هي بذاتها ؟ فإن هذا احتمال غير صحيح لأنها لا تملك لنفسها البقاء ولا الحياة.

أو أن الذي وهبها هذه الخصائص هو أمر خارج عن ذاتها وصفاتها وهو المؤثر فيها بهذه الانفعالات أم أن الذي وهبها هذه الخصائص هي الصدفة التي فعلت بها هكذا ؟

وفي الحق أن الصدفة غير عاقلة فهي بكماء عمياء صماء لا تستطيع التدبير والإبداع والخلق وكذلك الحبة ليست عاقلة ولا مدبرة وإلا فلماذا لا تدفع عن نفسها ضر من يقطعها أو يفتك بها؟ ثم لماذا لا تنفتح أكثر من الحجم اللازم

للإنبات أو لماذا لا تضمر وتجمد بدلاً من أن تنمو وتخضر.

ولكن ربما هناك من يقول إن الماء هو الذي نفخها وهنا نستطيع أن نقول هل يستطيع الماء أن ينفخ في الحديد ويفلقه؟ اللهم لا.

إننا نلمس بالفطرة أن وراء هذه الظاهرة وكل مثيلاتها عقل مدبر حكيم وقد يدعي مدع ويقول إن النبات طبعه هكذا تنتفخ الحبة ثم تنفلق ثم تنقسم خلاياها بميل فيها إلى التوالد والانقسام.

ولكن هذا زعم يرد عليه عدة استفهامات منها: ما هو السبب والأسباب التي جعلت الحبة تسير إلى هذه الأطوار المنتظمة من طور الإنبات إلى مرحلة الطفولة ثم آزر شطأه فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع إلى تمام النضج والإثمار؟ ولماذا لا يصلح فيه عكس ما يصلح لإثماره؟.

إن صاحب هذه النظرة اقتصر في نظره على وصف الظاهر دون إدراك المؤثرات والأسباب ثم إنه قد جعل الصفة المنفعلة سببًا فاعلاً والقابلية للتأثير أمرًا مؤثرًا والظاهرة المجهولة - وهي كونها جبلت هكذا - عاملاً مكونًا.

فإن الانتفاخ صفة وجدت عن مؤثر خارج عن ذات الحبة وكان التأثير بعد قبولها لذلك.

أما الانفلاق والامتداد في الجهات المختلفة ومرورها بأطوار نموها كل هذه صفات في حياة النبات والذين يزعمون الطبيعة إلهًا لم يزيدوا على أن جعلوا الخصائص والصفات والأعراض سببًا في الخلق وجعلوا مقولة الانفعال سببًا فاعلاً ومدركًا لتكوين الأشياء.

وإذا كانت الطبيعة لا تدرك ولا تعقل فهي من القول بالمصادفة البحتة والمصادفة من غير شك ليس لديها إدراك ولا عقل وإذن فلابد من التساؤل عن الذي أودع الحياة في الحبة فضلاً عن

التنظيم المحكم لهذا الكون في جميع مظاهره العلوية والسفلية فمن البذور بذر الحنظل ومنه بذر التفاح وإنا لنضع كلتا البذرتين في أرض واحدة وتسقيان بماء واحد في مناخ وظروف واحدة ومع ذلك فإن كل واحدة منهما تنتج ثمرًا يختلف في لونه وطعمه ورائحته عن الأخرى فضلاً عن الاختلاف في الشكل والنمو لكلتا الثمرتين.

نعم هناك تساؤلات كثيرة يثيرها العقل ولا يستطيع أحد أن يكفه عن ذلك فيمكن أن يقال: كيف تمتص جذور النبات الماء وتصطفي ذرات بعينها وتنضجها وتسوقها إلى الثمر وتكون العصارة وتنشئ الحلاوة في بعض والمرارة في بعض آخر فما هو سبب هذا وغيره؟ ولا ينبغي أن نقف عند الوصف أو الخاصة وكل ذلك أعراض لا ذاتية فيها وليس في أي منها خاصة الخلق. ثم ما هي حقيقة تلك الطبيعة ومن الذي طبع الأشياء فيها وكيف تأثيرها؟ وهل هي تبدع أم تصنف وتركب؟ وهل هي فاعلة بذاتها أو منفعلة بغيرها؟ إننا نرى الطبيعيين قد نقلونا من مجهول واحد إلى مجاهيل عدة ونقلونا من أصل ترجع إليه جميع الأسباب وهو مصدرها إلى أمور لا تحسم الأمر فبدلاً من أن تصوب النظر إلى خالق الحبة والحيوان والنبات نقصر النظر إلى صفات منفعلة ليس لها من القدرة على الخلق أقل نصيب[٤٤].

إن الطبيعة صماء لا تسمع وأنتم تسمعون فمن أين جاء لكم السمع ومن تدعون أنها قد خلقتكم فاقدة له.

إن الطبيعة لا تعقل وأنتم تعقلون.

إن الطبيعة لا إرادة لها ولا اختيار وأنتم مريدون.

إن الطبيعة بكماء لا تتكلم وأنتم تتكلمون.

إن الطبيعة تحتوي على كل صفات النقص وأنتم كاملون فمن أين لكم هذا

الكمال ؟ وهل يكون المخلوق أسمى من الخالق ؟ وهل فاقد الشيء يعطيه ؟

إن الجواب على ذلك مرهون بمدى ذكائكم.

يا هؤلاء : إن الطبيعة مخلوق لا خالق ومصنوع لا صانع ومنفعل لا فاعل فأنتم الذين تتحكمون فيها بعلمكم وفكركم.

إن الأمر يحسم بقوة إذا تأملنا عن وعي آيات من كتاب الله هي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾(٤٥).

وبذلك نخرج من النظر في أمور مجهولة إلى أمر واضح معلوم هو الله الأول والآخر والظاهر والباطن وهو على كل شيء قدير.

فما في الطبائع من أوصاف وخصائص لا تعدو أن تكون أسبابًا تعضد الأسباب المذكورة في سلسلة الأسباب والمسببات. إن الذي ضم الصفات في الكائن والخصائص إلى بعضها وظن أن مجموعها يكون في خياله إله الموجودات فأقبل عليه طائعًا وأسلم له خاضعًا من بعد أن صنعه بيده شأنه كعابد الوثن يصنعه ثم يتخيل أنه ينفع ويضر ثم يعبده.

وما أشد التشابه بين من كانوا يعبدون الأصنام من قبل وينافحون عنها ومن يعبدون الطبيعة اليوم ويجادلون عنها.

فالدوافع النفسية واحدة ونوعية الخطأ واحدة وهو الاصطناع في أول الأمر وتوهم الاستقلال والتأثير في آخره والقرآن الكريم يشير إلى أن هؤلاء جميعًا وإن تعددت نظرياتهم في ادعاء إلاهية الطبيعة في كل ذلك سواء وما هي إلا أسماء يسميها الملحدون ولكنها لا قيمة لها ولا فاعلية ولا تأثير يقول الله

تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٤٦].

ونستطيع أن نلخص القول في الطبيعة المزعومة (إلهًا) بأنها إما أن تكون حدثت بذاتها وهذا باطل بداهة لاستحالة حدوث الشيء من غير محدث وإما أن صفاتها تخلق ذاتها وهذا بيّن البطلان حيث إن الذات قد عجزت عن خلق نفسها فهل الصفة تخلق الذات ؟ إنه لا يقول بذلك عاقل.

أو نقول إن وجودها من خارج عنها وهو مصدر كل أسبابها وإليه ترجع جميع الأسباب إنه الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وهكذا نجد أن الطبيعة إله العصر المزعوم لم تثبت أمام البرهان العقلي والنقد العلمي وليست بالنسبة للمخلوقات سوى صفاتها وقوانينها التي تجري عليها وأن صفات الأشياء لا توجدها وخصائص الموجودات لا تخلقها[٤٧].

إذن ليس لنا إلا أن نقر في النهاية بوجود مبدع حكيم وهو الله سبحانه وتعالى.

فالاحتجاج بالطبيعة أمر منقوض[٤٨] وباطل بل إن أصحابها المرددين لها لا يعرفون معناها وهذه مشكلة المشاكل بل هذه كافية في الرد عليهم. يقول الشيخ نديم الجسر: (زعم بعضهم أن أصل الحياة كرية سحرية بسيطة ذات خلية واحدة وزعم آخرون أن الحياة عبارة عن كتل زلالية حية صغيرة هي أدنى من ذات الخلية الواحدة وأبسط لذلك سموها (مونيرا) أي الوحدة البسيطة في اليونانية

وزعموا أنها تتكون من الجماد (بالتولد الذاتي) ومن أشهر القائلين بذلك العالم الألماني آرنست هيكل يقول هيكل: إن الكون مؤلف من المادة والمادة مؤلفة من الذرات ومن هذه المادة ظهر كل ما في الكون.. وحركة العالم هي حركة تطور دائم يبتدئ من أبسط الذرات وينتهي إلى أرقى الكائنات فهذه الكائنات كلها حيها وجمادها تتألف من عناصر واحدة لا فرق في ذلك بين حي وغير حي لأن عناصر المواد العضوية موجودة بذاتها في المواد غير العضوية، وإن بالإمكان تحضير بعض مركبات عضوية بطريقة صناعية وعلى هذا الأساس يقول هيكل أن أبسط أنواع الحيوان نشأت من مادة غير حية بطريق التولد الذاتي)[٤٩].

إن أصل الحياة نشأ من توازن نسبي بين مقادير خاصة من العناصر المادية لكن هذا التوازن دقيق جدًا إلى حد أنه قد يكون نقص جزء واحد أو زيادة واحد من أحد العناصر سببًا في نشوء الحياة أو تعطيل نشوئها.

والماديون يقفون عاجزين عن تفسير سر نشأة الحياة الأولى من الجماد يشير إلى ذلك بنجفر فيقول: «إن البت في أمر التولد الذاتي للكرية الأولى التي نشأ عنها الأصل الأول غير متيسر لأن الأحوال المناسبة لتولد الكريات الأولى تولدًا ذاتيًا غير معروفة والكرية ذاتها على بساطتها ذات بناء وتركيب يمتنع معه صدورهما من الجماد مباشرة بل إن ظهورها من الجماد ليُعدّ في نظر العلم معجزة ليست أقل بعدًا عن العقل من ظهور الأحياء العليا من الجماد رأسيًا»[٥٠].

ومما ينقض نظرية التولد الذاتي:

(أ) اعتمادها على الصدفة والصدفة منقوضة.

(ب) كيف عرف هيكل هذا؟ هل كان حاضرًا ورأى ذلك قبل ملايين

السنين ؟ إنه مجرد تخمين بني على الظن !

(ج) هل فعل ذلك علميًا .

(د) المواد غير العضوية التي ادّعوا أن منها الحياة موجودة فلم لا يحاولون .

(ه) من الذي أوجد المواد الأولية وقدر لها مقادير معلومة[٥١] .

ويفسر بعض الطبيعيين الحياة بأنها جاءت من كواكب أخرى على شكل جرثومة أو يقولون إنها وصلت إلى الأرض عن طريق نيزك أصاب الأرض وهذا كلام لا يستند على دليل بل هو خرافة لا تستند على برهان بل هو مجرد ادعاء والدعوى بدون دليل ساقطة ثم كيف استطاعت الجرثومة أن تبقى على قيد الحياة في درجة الصفر المطلق في الفضاء وكيف نجت من الإشعاع الذي يقتل أمثالها . وإذا بقيت حية فكيف وجدت لها المكان المناسب، وكيف وجد هذا الاتفاق المدهش ؟ وكيف سلمت رغم الاشتعال الذي يحصل عندما يصطدم النيزك في جو الهواء ، وإذا سلمنا بكل ما سبق فكيف بدأت على الكوكب الأول .

وهذا السؤال الأخير هو عقدة العقد الذي حير الملاحدة فقد ظنوا أنهم توصلوا إلى الإجابة الذهنية للقضية لكنهم وجدوا أنفسهم أمام لغز لا يحل إلا بالإقرار بالخالق العظيم الذي هو ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ من سورة الأنعام آية ٩٦ .

الكيمياء قادرة على خلق الحياة

يزعم بعض الملحدين ان الكيمياء العضوية قادرة على خلق الحياة إذا توافرت الأسباب والمدة الزمنية، ومن الممكن تفنيد هذا الزعم بأنهم لم يخلقوا شيئًا ولا يمكن أن يخلقوا شيئًا مهما صغر

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾[٥٢].

ومن المقرر أن من يعجز عن خلق الذباب أو استرداد ما يسلبه الذباب منه فإنه عن خلق غيره أعجز.

نعم قد حاولت روسيا أن تبرهن على إمكانية نشأة الحياة كيماويًا وذلك في زعمها كدليل تثبت به مذهبها الإلحادي وكان أن كلفت بهذا الموضوع (أوبارين) رئيس المعهد الكيميائي في الاتحاد السوفيتي وطلبت منه أن يتفرغ للبحث في أمر واحد وهو مدى إمكانية إيجاد الحياة عن طريق التفاعل الكيميائي وبعد عمل متواصل قارب عشرين عامًا أعلن حوالي سنة ١٩٦٢م عن انتهائه من دراسة هذا البحث وأعلن عن النتيجة التي توصل إليها في تقرير رسمي أذاعته جميع وكالات الأنباء في العالم إذ ذاك وهي أن العلم الكيميائي عاجز عن إيجاد الحياة في المخبر والعلم لا شأن له إلا بالمادة المحيية[٥٣].

أزلية الكون

الماديون لا يعتقدون بأن للوجود خالقًا بل يقولون بأن كل ما في الكون أزلي والنواميس الطبيعية نشأت على سبيل الصدفة والاتفاق وبلغت ما بلغته من الكمال والإتقان عن طريق التطور، ويقول الماديون بقدم المادة وأنه لا موجد لها ولا محرك وأن هذه المادة متطورة باستمرار، وأن الكائنات الحية نتيجة لذا التطور وأبرز مظاهر هذا التطور هو الإنسان[٥٤].

ويقول الماديون إن هذا الكون والموجودات لا خالق لها ولا مدبر وإنما أجزاء الكون بما فيها الإنسان آلة تتحرك

بذاتها وفي اليوم الذي ينتهي فيه التعاون بين المادة والطاقة يختل فيه هذا النظام. فالعين ليست المنظر وإنما نتيجة لترتيب خاص للمادة يوجد في العين. وما المخ بأداة للفكر والتأمل والشعور والعاطفة وإنما تفرز الأفكار والعواطف والإرادات من مادته كما تفرز الصفراء من الكبد ويفرز البول من الكلية ولا مبرر للشعور بالحاجة إلى الآخرة لأن الكون ونظامه يجري بلا هدف ولا غاية بل طبيعة عمياء لا علم لها ولا شعور.

كلام الماديين في أن الإنسان آلة وأنه يتحرك طبقًا للعلاقة بين المادة والطاقة فهذا أيضًا غيب لم يطلعوا عليه بل مهرب تعودناه منهم ليفسروا الكون بلا محرك؟

ولكن من أوجد هذه الآلة وهذه المادة وهذه الطاقة ؟ ومن الذي وضع ورتب العلاقة بينهما.

وقد زلت ألسنتهم فأشاروا إلى قيام الساعة بتفسيرهم الذي يسمونه علميًا بقولهم إن النظام يختل إذا بطل التعاون بين المادة والطاقة[٥٥].

وهاهم يؤلهون المادة فيرجعون كل شيء إليها وما أقبح كلامهم حول الفكر إذا اعتبروه يفرز كما يفرز البول من الكلية. وهذا الكلام قد نقبل به إذا تحدثنا عن فكرهم، إذ هو كالبول أو أدنى، أما الفكر السليم الصافي فهذا ما لا تدركه أفكارهم وعقولهم.

ثم من الذي قال لهم إن الكون يسير بطبيعة عمياء؟ أو من يشاركهم في هذا؟ لابد أنهم ينظرون بعيون غير عيون البشر. إن الناظر في ظواهر الكون المختلفة يجد الإحكام والإتقان والتدبير وقد أشار إلى ذلك سيد قطب في تفسيره إذ يقول: «وهذه الحقيقة الكبرى ماثلة في كل شيء في هذا الوجود يشهد بها كل شيء في رحاب الوجود من الكبير إلى

الصغير ومن الجليل إلى الحقير. كل شيء سوي في صنعته كامل في خلقته معد لأداء وظيفته مقدر له غاية وجوده وهو ميسر لتحقيق هذه الغاية من أيسر طريق. الذرة بمفردها كاملة التناسق في كهاربها وبروتوناتها وإلكتروناتها شأن المجموعة الشمسية في تناسق شمسها وكواكبها وتوابعها والخلية الحية المفردة كاملة الخلقة والاستعداد لأداء وظائفها شأنها شأن أرقى الخلائق الحية المركبة المعقدة»[٥٦].

وقد أشار كريسي موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك إلى مظاهر الإتقان والإحكام في الكون بقوله: «إن الطيور لها غريزة العودة إلى الوطن. فعصفور الهزاز الذي عشش ببابك يهاجر جنوبًا في الخريف ولكنه يعود إلى عشه القديم في الربيع التالي وفي شهر سبتمبر تطير أسراب من معظم طيورنا إلى الجنوب وقد تقطع في الغالب نحو ألف ميل فوق أرض البحار ولكنها لا تضل طريقها وحمام الزاجل إذا تحير من جراء أصوات جديدة عليه في رحلة طويلة داخل قفص يحوم برهة ثم يقصد قدمًا إلى موطنه دون أن يضل؟؟ والنحلة تجد خليتها مهما طمست الرياح في هبوبها على الأعشاب والأشجار»[٥٧].

وبالإضافة إلى ذلك هناك عملية التمثيل الكلوروفيلي وعملية التنفس فالإنسان يخرج ثاني أكسيد الكربون ويأخذ الأكسجين خلال تنفسه بالشهيق والزفير بينما النبات يأخذ ثاني أكسيد الكربون ويخرج الأكسجين خلال عملية التمثيل الكلوروفيلي ولابد لنا لنتصور حكمة الله كيف لو أن الإنسان والنبات قاما بعملية واحدة وهي التنفس مثلاً أو التمثيل الكلوروفيلي. إذن لامتلأ الكون بغاز واحد فلو أخذ الإنسان الأكسجين وأخرج ثاني أكسيد الكربون وكذلك فعل النبات لامتلأ الكون بثاني أكسيد

الكربون وهنا يحدث اختناق للكائنات الحية.

لكنها حكمة الله التي تفند دعوى كل مكابر.

ومع الدلائل والآيات العجيبة يصرّ الملحدون على أن المادة هي كل شيء وأنها قديمة وأنها تطورت بالقوانين الجدلية الباطنة في المادة دونما عوامل خارجية.

فبدؤوا بافتراض أزلية المادة (وهو خطأ) تسللاً من الزمن الماضي إلى آجال سحيقة إلى أن يصلوا إلى الأزل أو اللانهاية.

وقد أثبت العلم خطأ هذه الفكرة - أزلية الكون - يقول أحد علماء الأحياء ردًا على الماديين الذين قالوا بأزلية الكون: «فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليًا فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة فترتد من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة. ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيمياوية أو طبيعية ولن يكون هناك أثر للحياة نفسها في هذا الكون. ولما كانت الحياة لا تزال قائمة ولا تزال العمليات الكيمياوية والطبيعية تسير في طريقها فإننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليًا وإلا لاستهلكت منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود. وهكذا توصلت العلوم دون قصد إلى أن لهذا الكون بداية وهي بذلك تثبت وجود الله لأن ماله بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ نفسه ولابد له من مبدئ أو من محرك أول أو من خالق وهو الإله»[٥٨].

وقد صرح القرآن بأن للكون بداية وأن ذلك من صنع الله. قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾[٥٩].

كما صرح بأن الكون سائر إلى نهاية وهي يوم القيامة وفيه تنعدم الطاقة قال تعالى: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾[٦٠].

ومن العجيب في هؤلاء الماديين أنهم حكموا بالخطأ على غير المادة مع أنهم ماديون والأولى بهم أن لا يتعرضوا لغير المادة بالخطأ أو الصواب لأنها ليست من اختصاصهم إن المذهب المادي يحمل ما ينقضه إذ إنه بني على الفروض مثل اعتمادهم نظرية الأثير وهي نظرية لا واقعية ولا ملموسة وكذلك بقاء المادة وزيادة ونقص الإلكترونات والجاذبية العامة والخاصة كل هذه فروض لا تخضع لتجربة وغير مؤكدة[٦١].

وجود الشر

ومما احتج به الملحدون في إنكارهم وجود الشر في العالم فقالوا كيف تكون الدنيا من صنع خالق كامل حكيم وهي في حالة من الشر والظلم والنقص وسفك الدماء؟؟ إذ لو كان الخالق موجودًا فعلاً لمنع كل هذه الأشياء ولأبد لها خيرًا وسعادة.

ومن الممكن تفنيد هذه الشبهة في ما يلي:

١ـ لا يمكن الحكم على رواية بحضور فصل واحد منها. والدنيا في اعتقادنا ليست هي النهاية بل هي مرحلة من مراحل كثيرة يمر بها الإنسان. أما المرحلة النهائية فهي الآخرة حيث لا ظلم كما قال تعالى: ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾[٦٢].

٣ــ كثير من المجرمين والظلمة يلقون عقابهم في هذه الدنيا ويشاهد الناس ذلك أمامهم كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[٦٣].

٣ــ أحيانًا نلاحظ أن الابن يبكي عندما يؤخذ أبوه لعملية جراحية ويظن أن هذا شر وقع على أبيه فإذا امتد به العمر ونجحت الجراحة علم أن هذا الشر العارض كان وراءه خير كثير يستحق التحمل والمشقة من أجله وكذلك هذه الدنيا.

كما قال الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما

فليقس أحيانًا على من يرحم

٤ ــ بناء وتكوين شخصية الإنسان مرتبط بالمشقات فلولا المشقة لما كان لكثير من الناس معنى من صلابة وحزم وعزم كما قال المتنبي:

لولا المشقة ساد الناس كلهم

الجود يفقر والإقدام قتال

٥ ــ ما يبدو لنا - في النظرية الجزئية - عيبًا ونقصًا نراه في النظرة الشاملة وفي المنظور التاريخي نعمة وخيرًا كما لو اقتربنا من جزئية صغيرة في لوحة فنلاحظ أنها لطخة قذرة فإذا ابتعدنا رأينا تلك اللطخة مساحة من الظلال تؤدي وظيفة ضرورية في الجمال الكلي[٦٤].

٦ــ الحرية ملازمة للإنسان ويقترن بالحرية الخطأ فهو ضريبتها. ومن نتائج الخطأ الشر ولو ولد الإنسان مجبرًا على الخير لفقد حريته.

٧ــ الخير والشر وجهان لعملة واحدة فالفيضان هو خير من وجه وشر من وجه آخر.

والحروب دمار من جهة وحياة من جهة أخرى وهكذا. والبحوث المركزة في أوقات الحرب أخرجت للناس البنسلين

ونقل الدم ونقل الأعضاء والطاقة الذرية والصواريخ والنفاثات والغواصات وصناعة الصلب والبارود وأجهزة الرادار.

٨ ـ الإنسان محدودة طاقته فإذا قصر في الخير وجد الشر.

٩ـ إن الله عز وجل ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[٦٥]. الله سبحانه يخلق ما يشاء ويختار ما يشاء ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٦٦].

وقد أراد الله الحكيم أن يكون في دار الدنيا خير وشر فوجود الشر ليس دليلاً على عدم وجود الخالق تعالى بل إن وجود الشر (بالنظرة البعيدة) دليل على الخالق الفاطر سبحانه وتعالى إذ إننا نحن البشر نعجز في كثير من الأحيان عن تقدير عقوبة ظالم من الظالمين لكثرة الشرور التي فعلها حتى ولو قدرنا له عقوبة الموت فإنه لا شيء بالنظر إلى مئات أو آلاف الأرواح التي أزهقها وغير ذلك من الفساد.

فشر هذا الظالم وعدم مقدرتنا على تقدير عقوبة له دليل على أن هناك ذاتًا أقوى وأحكم منا قادرة على تلقين هذا الظالم عقوبة تتناسب مع جرائمه فلا تنقص ولا تزيد بينما لو وكل الأمر للبشر فإنه لابد مائل إلى جهة من الجهتين.

وعليه فلا مجال لادعاء عدم وجود الخالق بسبب وجود الشر بل الشر والخير من دلائل وجود الله.

شبهة الأرزاء:

وفي هذا يتفنن الملحدون في اختلاق المزاعم وزخرفة الأوهام كأنهم يستعذبون الخرافة والتهريج.

فمن مزاعمهم: أن الشرور التي تنتاب الناس والرزايا التي تلم بهم

كعروض الأمراض وحدوث الصواعق والرزايا وطوارئ الحرق والغرق وخلق المؤذيات من السباع والحشرات كل ذلك مع تسيب العالم وخلوه من سمات القصد والتدبير مما زجهم في مهاوي الكفر والإلحاد.

وسأوضح بطلان هذه الشبهة وفسادها بما أعرضه على النحو التالي:

الأمراض:

إن الأمراض ليست كما يزعمون ناشئة عن قصور في العناية الإلهية أو نقص في تدبيرها الحكيم، وإنما هي ناشئة في الأعم وفي الأغلب بسبب مخالفة القوانين الإلهية والآداب الشرعية المسنونة لصيانة الإنسان ووقايته من شرور الأمراض والأسقام. فالإفراط في الأكل والإسراف الجنسي وتعاطي المخدرات والمنبهات ومواصلة الإجهاد الجسمي والفكري، كل ذلك من دواعي اعتلال الإنسان وانحراف صحته.

هذا إلى أن الإنسان بحكم واقعه وطبيعة تكوينه عرضة لمختلف الطوارئ التي لا تنفك عنها جميع الممكنات تلازمه ملازمة الظل لصاحبه كالمرض والهرم والموت، فنفي ذلك عنه جهل بحقيقته وإعفاء له من ألصق خصائصه البشرية.

بَيْدَ أن الله عز وجل لم يدع الإنسان فريسة للأمراض وهدفًا لها، فقد علمه طرائق الوقاية والعلاج منها، وجعل لكل داء دواء يستطب به وما برح الأطباء عبر العصور ينشئون الأدوية الناجعة والعقاقير الشافية لكثير من الأمراض.

وبالرغم من فداحة الأمراض وآلامها المبرحة فإنها لا تخلو من حكم ومصالح فهي محك واختبار للإنسان يستجلي مبلغ إيمانه وواقع أخلاقه وتمسكه بالصبر أو الجزع: بالتفويض إلى الله تعالى أو السخط على قضائه وتدبيره، وعلى ضوء نتائج الاختبار ينال الممتحن ما يستحقه من الأجر والمكافأة.

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[٦٧].

والأمراض بعد هذا وذاك وسيلة تأديبية تزجر الغواة والعابثين الذين أبطرتهم العافية وغرتهم الصحة فاندفعوا في تيار الأهواء والآثام دونما اكتراث ومبالاة بنتائجها السيئة، ومغبتها الوخيمة فتقرعهم آنذاك الأمراض بسوطها الموجع لتؤدبهم وتقوم انحرافهم وتعيدهم إلى الرشد والصواب.

قال ﷺ: « لولا ثلاثة في ابن آدم ما طأطأ رأسه شيء، المرض والموت والفقر وكلهن فيه وإنه معهن لوثاب »[٦٨]. وهي كذلك كفارة للمؤمن وطهارة له من تبعات الذنوب ودنس الآثام ليلقى الله عز وجل نقيًا آمنًا من سخطه وعقابه كما ورد في بعض الآثار من ذلك: المرض للمؤمن تطهير ورحمة وللكافر تعذيب ولعنة وإن المرض لا يزال بالمؤمن حتى لا يكون عليه ذنب.

وللمريض أربع خصال: يرفع عنه القلم ويأمر الله الملك يكتب له كل فضل كان يعمل في صحته ويتبع مرضه كل عضو في جسده فيستخرج ذنوبه منه فإن مات مات مغفورًا له وإن عاش عاش مغفورًا له[٦٩].

وأما الآفات التي تنتاب الناس وتلم بهم أحيانًا كالصواعق والزلازل وطوارق الحرق والغرق وانتشار الجراد ونحوها من المكاره والأرزاء التي اتخذها الملحدون ذريعة إلى إنكار الخالق ونفي الحكمة والتدبير في خلقه. وتلك شبهة مخرقة تكشف عن بلادة أربابها وغبائهم الفاضح، كيف يكون العالم غفلاً مهملاً من العناية والتدبير..؟؟

ونحن نشاهد آيات الحكمة ودلائل القصد والتدبير تطالعنا فيه هنا وهناك في

أقطار الأرض وآفاق السماء وفي جميع الموجودات صغيرها وكبيرها وجليلها وحقيرها. وعلام لم يحدث في الكون ما هو أفظع من ذلك؟ كأن تسقط السماء على الأرض، وتهوي الأرض فتذهب سفلاً وتتخلف الشمس عن الطلوع وتجف الأنهار والعيون وتركد الريح حتى تفسد الأشياء ويفيض ماء البحر على الأرض فيغرقها.

وما بال هذه الآيات لا تدوم وتمتد حتى تجتاح العالم بل تحدث في الأحايين ثم لا تلبث أن ترتفع. أفلا ترى أن العالم يصان ويحفظ من تلك الأحداث الجليلة التي لو حدث شيء منها كان فيه بوار.

ويلدغ الناس بهذه الآفات اليسيرة لتأديبهم وتقويمهم ثم لا تدوم بل تكشف عنهم فيكون وقوعها بهم موعظة وكشفها عنهم رحمة. ولو كان عيش الإنسان في هذه الدنيا صافيًا من كل كدر لخرج الإنسان من الأشر والعتو إلى ما لا يصلح في دين ولا دنيا كالذي نرى كثيرًا من المترفين ومن نشأ في الجدة والأمن يخرجون إليه حتى ينسى أحدهم أنه بشر وأن ضررًا يمسه أو مكروهًا ينزل به وأنه يجب أن يرحم ضعيفًا أو يواسي فقيرًا أو يرثي لمبتلى أو يعطف على مكروب فإذا عضته المكاره ووجد مضضها اتعظ وأبصر كثيرًا مما كان جهله وغفل عنه ورجع إلى كثير مما كان يجب عليه. والمفكرون لهذه الأمور بمنزلة الصبيان الذين يذمون الأدوية المرة البشعة ويسخطون من المنع من الأطعمة الضارة ويتكرهون الأدب والعمل ويحبون اللهو والبطالة ويغالون في كل مطعم ومشرب ولا يعرفون ما تؤدي بهم البطالة إليه من سوء النشوء والعادة، وما تعقبهم الأطعمة اللذيذة من الأدواء والأسقام، وما لهم في الأدب من الصلاح وفي الأدوية من المنفعة، وإن شاب ذلك بعض الكراهة.

فإن قالوا: ولم لم يكن الإنسان معصومًا من المساوئ لا يحتاج إلى أن تلدغه هذه المكاره؟ قيل: إذن كان يكون غير محمود على حسنة يأتيها ولا مستحق للثواب عليها.

وقد يتعلق هؤلاء بالآفات التي تصيب الناس فتعم البر والفاجر منها، كيف يجوز هذا في تدبير الحكيم وما الحجة فيه؟

فيقال لهم: إن هذه الآفات وإن كانت تنال الطالح والصالح معًا فإن الله عز وجل جعل ذلك صلاحًا للصنفين كليهما.

أما الصالحون: فإن الذي يصيبهم من هذا يزيدهم إدراكًا لنعم ربهم في سالف أيامهم فيحدوهم ذلك على الشكر والصبر.

وأما الطالحون: فإن مثل هذا إذا نالهم كسر شرهم وردعهم عن المعاصي والفواحش. وكذلك يجعل لمن سلم من الصنفين صلاحًا في ذلك.

أما الأبرار: فإنهم يغتبطون بما هم عليه من البر والصلاح ويزدادون فيه رغبة وبصيرة.

وأما الفجار: فإنهم يعرفون ما بهم من رأفة ربهم وتطوله عليهم بالسلامة من غير استحقاق فيحضهم ذلك على الرأفة بالناس والصفح عمن أساء إليهم[٧٠].

الشرور والمظالم:

ويعترض الجاحدون في تشدق فاضح على الشرور والمظالم التي يقترفها الناس من إثارة الحروب وسفك الدماء وهضم الحقوق والكرامات، ونحوها من صور المظالم التي استدلوا بها على تسيب العالم وإغفاله من ضوابط العناية والتدبير.

وهذا اعتراض ساقط إذ ليس العالم مهملاً كما يزعمون وليست تلك الظلامات ناشئة من إهماله وإغفاله وإنما هي من شذوذ الإنسان وعتوه وطغيانه.

فقد أرسل الله الأنبياء والمرسلين إلى الناس مبشرين ومنذرين فلم يتركوا فضيلة إلا حضوا عليها ولا رذيلة إلا حذروا منها وجهدوا ما استطاعوا في تهذيب الإنسان ورقيه وإسعاده.

وإنما شقيت البشرية وعانت تلك الشرور والأرزاء بطغيانها وتمردها على الأنبياء عليهم السلام ودساتير السماء الكفلة الموجهة، ولو أنها استنارت بهداهم وسارت على نهجهم لسعدت وعاشت في طمأنينة وسلام متفادية تلك المظالم: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[٧١].

وليس من الحكمة أن يجبر المولى عباده على طاعته ومجانبة عصيانه، فإنهم لو قسروا على ذلك لانعدمت فيهم مقاييس الفضل والكمال وتلاشت الفوارق والميزات بين الطيب والخبيث، والمحسن والمسيء، ولم يستحق المحسن ثوابًا ولا المسيء عقابًا، وذلك مناف لصميم حكمة الله عز وجل.

وهكذا لو أجبر الناس على الطاعة والصلاح لانحطوا عن سمو الإنسانية إلى حضيض البهائم والدواب التي تساس بالعصا والإرهاب وذلك مزر بكرامة البشر وليس الاعتراض على نقص الإنسان وعدم خلقه كاملاً مبرءاً من الشذوذ والإجرام إلا كالقول بضرورة قسره على الطاعة وكلاهما باطل كما عرفت.

أضف إلى ذلك: أن انتفاء التمايز والتفاضل بين الناس وجعلهم صورة واحدة لا تختلف ولا تتفاوت في المواهب والكفاءات باعث على فساد المجتمع وتسيب نظامه القائم على التمايز والتفاوت.

الموت:

وقد اتخذه الجاحدون وسيلة للدس والتهريج على إغفال العالم وخلوه من التدبير لشيوع الموت فيه وأنه كان الأجدر على زعمهم أن يظل الإنسان خالدًا في الحياة لا يفنى ولا يموت إذ اعتبروا الموت شرًا مستطيرًا وبلاء وبيلاً.

وليس الموت شرًا كما يزعمون وإنما هو انتقال للمؤمنين من سجن الحياة وأسرها وآلامها إلى جنات الآخرة ونعيمها الخالد وصيرورة للكافرين إلى عذاب الله وعقابه الذي يستحقونه جزاء وفاقًا. وليس الاعتراض على موت الإنسان وارتحاله إلى عالم الخلد إلا كالاعتراض على الجنين بخروجه من ضيق الرحم وظلمته إلى فضاء الدنيا ونورها الوهاج إذ ليست الدنيا في قياسها بالآخرة إلا كقياس الرحم من سعة الدنيا وجمالها الفاتن.

على أن البشر لو كانوا خالدين في الحياة لضاقت عليهم الأرض برحابها وأعوزتهم المعايش والمساكن، ودفعهم ذلك إلى أبشع صور التكالب والتطاحن على زخارف الحياة فإنهم والموت يتخطفهم ويخترمهم لا ينفكون عن ذلك، فكيف بهم لو أمنوا الموت وكانوا مخلدين..؟.

ثم كانوا يملون الحياة ولذائذها كما قد يملها من طال عمره حتى يتمنى الموت والراحة منها.

فإن قيل: لم لم ترفع عنهم المكاره لكي لا يتمنوا الموت ولا يشتاقوا إليه[٧٢]. فقد وصفنا ما كان يخرجهم إليه من العتو والأشر الحامل لهم على ما فيه فساد الدين والدنيا.

خلق الشواذ:

ومن مطاعن الماديين على انتفاء القصد والتدبير في العالم خلق الشواذ

والمشوهين فيه الخارجين عن مألوف الخلق البشري.

وهو ادعاء باطل وزعم مزيف من وجوه:

١ــ أن خلق الشواذ لا يستلزم إنكار خلقهم لمجرد الجهل بأسباب شذوذها فكان الأجدر بهم أن يؤمنوا بوجودها لاستحالة وجودها من غير موجد ثم يتحروا بعد ذلك دوافع شذوذها وأسبابه.

٢ــ لقد تجلت حكمة الله تعالى في أغلب مخلوقاته مما أدهش العقول وبهر الألباب. ومتى ثبت حكمة الحكيم وصدر منه ما هو مجهول الغاية والقصد فلا يقدح ذلك في حكمته ليقيننا بصوابها وسدادها.

لذلك لا يصح ولا ينبغي أن يكون خلق الشواذ دليلاً على نفي حكمة الله تعالى، وباعثًا على جحوده ونكرانه وإنما يدل على قصورنا وجهلنا بأسرارها.

٣ــ لقد كشف العلم أن ذلك الشذوذ وتلك العاهات المشوهة كثيرًا ما تنجم عن مرض الآباء واعتلالهم مما يسبب تشويه نسلهم وشذوذه عن المألوف وحسبك في ذلك ما تسببه الأمراض الزهرية من صنوف العاهات والزمانات المشوهة للنسل.

٤ ــ أن من غرائب الماديين أنهم نظروا إلى الشواذ نظرًا قاصرًا وطفقوا يهرفون بشذوذها وإنكار صانعها. وفاتهم أن العلم أخذ في التقدم والاتساع وأن ما نجهل حكمته قد نعرفه في الغد القريب أو البعيد وطالما اكتشف العلم أسرارًا غامضة وألغازًا خفية كانت مبهمة على السابقين فكان الأجدر بهم أن يعترفوا بقصورهم عن تفهم أسرار الشواذ ويرجئوا ذلك إلى حين اتساع العلم وكشفه النقاب عنها كما هو ديدن العلماء المتواضعين الذين اعترفوا بهذه الحقيقة وصرحوا بأن مكاسبهم العلمية

تعتبر جزءاً ضئيلاً إزاء ما يجهلونه من أسرار الحياة وألغازها الخفية.

وإليك نموذجًا من شهاداتهم المعربة عن تواضعهم العلمي: قال الأستاذ (وليام جيمس) في كتابه إرادة الاعتقاد: « إن علمنا ليس إلا نقطة ولكن جهلنا بحر زاخر والأمر الوحيد الذي يمكن أن يقال بشيء من التأكيد هو: أن عالم معارفنا الطبيعية الحالية محاط بعالم أوسع منه من نوع آخر لم ندرك خواصه المكونة له إلى اليوم »[٧٣].

وقال الدكتور (بول كليرانس أبرسولد): « لقد كنت عند بدء دراستي للعلوم شديد الإعجاب بالتفكير الإنساني وبقوة الأساليب العلمية إلى درجة جعلتني أثق كل الثقة بقدرة العلوم على حل أي مشكلة في هذا الكون وإدراك معنى كل شيء وعندما تزايد علمي ومعرفتي بالأشياء من الذرة إلى الأجرام السماوية ومن الميكروب الدقيق إلى الإنسان تبين لي أن هنالك كثيرًا من الأشياء لم تستطع العلوم حتى اليوم أن تجد لها تفسيرًا وتكشف عن أسرارها النقاب »[٧٤] إلى كثير من أمثال هذه الشهادات.

خلق المؤذيات:

وكذلك اعترض المكابرون على خلق المؤذيات كالسباع الضارية والحشرات المؤذية والهوام القاتلة التي من شأنها الإضرار بالإنسان وإيذاؤه منكرين الغاية والقصد من خلقها وإيجادها.

والحق أن الجهل بعلل الأشياء وغاياتها لا يبطل حكمة خلقها وإيجادها، فقد تكون غاية في الصواب ونحن لا ندرك وجه صوابها.

وطالما كشف العلماء أسرارًا علمية كانت مبهمة على الأجيال السالفة، فمن الغباء أن يعترض الملحدون على خلق المؤذيات لجهلهم بغاياتها وفلسفتها.

على أن تلك المؤذيات لا تخلو من خواص ومنافع أدرك البشر بعضها وأفادوا منها وأرجئ الآخر إلى رقي العلم واتساع آفاقه.

هذا ولا يعتبر في تلك المؤذيات أن تكون مخلوقة لغير الإنسان ومنافعه فحسب وإنما هي أمة بنفسها ومظهر رائع من مظاهر قدرة الله تعالى وإبداعه المدهش.

بَيْدَ أن الله عز وجل وقى الإنسان شرها وأذاها بما منحه من المواهب والوسائل الموجبة لصيانته وحفظه[٧٥].

ومما احتج به الملحدون في إنكار الغيب أن العلم يرفض الغيب فالعلم مطلوب ولا يقول عاقل بتركه وحيث لا مجال بين الأخذ بالعلم والإيمان بالغيب وجب طرح الغيب وعدم الإيمان به ولأهمية هذه الشبهة سوف نقوم بمعالجتها في فصل مستقل بعد بإذن الله.

الإيمان بالغيب خيال لا واقع

واحتج الملحدون ايضا بان الإيمان بالغيب عملية خياليّة ترفضها الواقعيّة. ويقولون: إنّ علينا أن نفكّر في واقعنا ونترك ما هو بعيد إلى حينه وأن الحديث عن حياة أخرى غير الحياة الدّنيا حديث لهو لا غناء فيه ولا نفع، والنّفع والخير في استغلال الموجود من علم وصناعة وفنّ وزراعة وطبّ..إلخ. ويقولون إنّ النّاس بحاجة إلى من يطرق لهم أبواب الحياة في هذه الآفاق لا إلى من يثير في وجوههم غبار القبور ويسوق إليهم ريح الموتى ويحمل لهم الأكفان قبل أن يموتوا[٧٦].

ونستطيع تفنيد هذه الشبهة على النحو التالي.

نقول لهم: إنكم خلطتم الحق بالباطل وكلامكم مليء بالمغالطات. فمن قال لكم إن الإيمان يمنعكم من التفكير في واقعكم وتحسينه وترقيته في كافة المجالات؟ ومن قال لكم إن الحديث عن

الآخرة يكون على حساب مصلحة الناس في معاشهم؟ ومن قال إن هناك - أصلاً - فصلاً بين الدنيا والآخرة؟ ومن منعكم من استغلال العلوم والصناعات والتبحر فيها وجني ثمرها؟ من قال لكم إن الحديث عن الآخرة يجعل الناس يموتون وهم أحياء؟! إن هذه كلها تصورات خاطئة عندكم لجهلكم بطبيعة الإيمان الذي طلبه الله من خلقه. إن المسلم يفكر في آخرته دون أن ينسى واقعه ودنياه: ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾(٧٧).

إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها. إنّ الإسلام يفرض على أتباعه أن يكون فيهم من يغنيهم عن غيرهم في كافة المجالات وهو ما يسمّى عند العلماء بفرض الكفاية فيجب أن يكون بين المسلمين أطباء ومهندسون وفلكيون ومتخصصون في كافة المجالات.

ثم إن التفكير في الموت والقبر لا يثني المسلم عن العمل للدنيا. بل يجعله يهتم بآخرته أكثر وهذا هو منطق العقلاء إذ العاقل يفضل الباقي على الفاني. إن الزهد الذي يحض عليه الدين ليس معناه ترك الدنيا وخيراتها قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾(٧٨).

هذه ردود عليهم إن كانوا يجهلون طبيعة الإسلام خاصة والإيمان عامة، أما إن كان إنكارهم ينطلق من خلفية مسبقة وهذا هو الأغلب، وحقد دفين وإصرار على العصيان فهذا له كلام آخر حيث لا تنفع معه حجة ولا يستقيم لديه دليل كما قال الشاعر:

وليس يصح في الأفهام شيء
إذا احتاج النهار إلى دليل

الفكر نتائج المجتمع

ومما احتج به الملحدون في إنكارهم للغيبيات قولهم ان الأفكار الدينية

كغيرها من الأفكار من حيث إنها نتاج المجتمع، تقول الكراسة الرمادية التي نشرها الفوضويون الماديون في العراق «إن الإسلام ككل دين آخر هو ظاهرة تاريخية معرضة إلى تغييرات وتبديلات بحسب الظروف ويمكن القول إنه ينشأ نتيجة لعوامل تاريخية محضة»(٧٩).

فالدين عندهم ولد في مجتمع معين وبما أن هذا المجتمع قد مضى وانتهى فكذلك الدين لأنه ثمرة لذلك المجتمع الفاني يقول ماركس: «ليس شعور الناس هو الذي يحدد واقعهم بل الواقع هو الذي يحدد الشعور». ويقصد بهذا أن الأفكار - أية أفكار - هي من المجتمع تنبع لا من جهة أخرى ويقصد السماء والوحي فلا وحي ولا خالق بل هي أفكار أنتجها المجتمع وعبر عنها الناس(٨٠).

ومرادهم من هذا الكلام الوصول إلى مسألتين:

١ـ نفي أن يكون الدين سماويًا مرتبطًا بالوحي السماوي.

٢ـ الدين من صنع المجتمع وثمرة من ثمار مجتمعات متتالية فإذا تغير المجتمع تغيرت الأفكار.

وهذا كلام خطير عملت الماركسية على نشره بهدف تقرير أننا لسنا في حاجة إلى الدين لأنه ثمار مجتمعات قديمة أكل عليها الزمن وشرب.

ومن الممكن تفنيد هذه الشبهات فيما يلي:

١ـ إذا كانت الأفكار الدينية من نتاج المجتمع فكيف نفسر استمرار هذه الأفكار في جميع المجتمعات قديمًا وحديثًا.

٢ـ عدم مقدرة المفكرين على إدخال أفكار جديدة تستطيع العيش عبر العصور.

٣ـ المعجزات التي اقترنت بالدين تنفي كونه من إخراج المجتمع إذ المجتمع والناس كل الناس عاجزون ومقرون

بعدم مقدرتهم على الإتيان بمعجزات مثلها.

٤ ـ المعارضة القوية ومن أكثرية أفراد المجتمع للدين عند ظهوره تنفي أن يكون هذا الدين إفرازًا من المجتمع إذ لو كان كذلك لَمَا عارضه أحد لأنه استمرار وثمرة لِمَا أرادوا.

٥ ـ عدم التناسب بين فترة ما قبل ظهور الدين والأفكار التي نادى بها عند ظهوره، فالإسلام مثلاً ظهر في بلاد العرب ونادى بأشياء كثيرة أبعد ما تكون عن واقع العرب ومتطلباتهم فنادى بالتوحيد والجزيرة مليئة بالأصنام ونادى بنظام الدّولة وبلاد العرب تعيش في ظل النظام القبلي ونادى بمكانة المرأة وهي عندهم محتقرة ذليلة وحرم أشياء كالزنا والخمر، وهم غارقون فيها فكيف يكون الإسلام من نتاج المجتمع العربي ومع هذه الدلائل الواضحة لا يزال الملحدون في البلاد الإسلامية ينادون بهذه الفكرة[٨١].

الدين والأخلاق

ونجد امتدادًا لهذه الانحرافات التي سبقت الإشارة إليها أن هناك من يزعم بأن الدين يمكن الاستغناء عنه بالضمير ويذهبون إلى أن الفرد لو حسنت أخلاقه وكان حسن المعاملة لمن حوله فلا حرج عليه فيما يفعله والواقع المشاهد يدلنا على أن كثيرين يتصفون بالأخلاق الطبيعية وهم غير متدينين يستشهدون لذلك بأن الدين المعاملة[٨٢].

وهذا احتجاج باطل ودعوى ساقطة.

صحيح أن الدين المعاملة وأن حسن الخلق بعض ما يقصد من العبادة ولكن فات هؤلاء أن الأخلاق في الإسلام مؤسسة على العقيدة والإيمان بالله ومرتبطة بالعبادة فلا يجوز في نظر الإسلام التركيز على الجانب الأخلاقي وإهمال جانبي العقيدة والعبادة إذ إن الأخلاق الإسلامية تتميز بأنها مبنية على الرقابة الإلهية والضمير المتصل بالله

إضافة إلى رقابة القانون والمجتمع بينما الأخلاق في المجتمعات الأخرى مؤسسة على رقابة القانون أو الضمير الجمعي - ومن ثم فإنه لو تخلف القانون أو غاب المجتمع لتسيبت الأخلاق وانفرط عقد النظام الاجتماعي، في حين أن المسلم مسؤول أمام الله الذي لا يغفل ولا يغيب[٨٢].

والذي لا يعتقد العقيدة الصحيحة يكون قد أساء الخلق حتى ولو كان من أفضل الناس أخلاقًا مع الناس لأنه أساء خلقه مع ربه عز وجل. والإسلام يريد من المسلم أن يكون خلقًا صافيًا نقيًا ترتبط أخلاقه بالعقيدة الصحيحة فلا تكون أخلاقًا هشة تتغير بتغير الظروف والأزمان كما هو الحال مع المنافقين الذين عناهم الشاعر بقوله:

لا خير في ود امرئ متلون
إذا الريح مالت مال حيث تميل
وما أكثر الأعوان حين تعدهم
ولكنهم في النائبات قليل

﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾[٨٤].

والقلة التي يحتج بها وأنها على أخلاق حميدة دون دين هذه القلة ليست هي المقياس للمجموع العام.

والدين جاء ليخاطب كل الناس ضعيفهم وقويهم وغنيهم وفقيرهم الرجل والمرأة، الأبيض والأسود..إلخ. وكي ينضبط هذا المجموع في سلك الأخلاق المؤسسة على العقيدة كان لابد من الدين. ولابد من مقياس للأخلاق الحسنة من القبيحة. روى الترمذي: «أكمل الناس إيمانًا أحسنهم خلقًا» فالدين وحده هو الذي يحدد السلوك المستقيم من غيره فلا القانون ولا الفلسفة الأخلاقية تحدد ذلك فالقانون يحكم على الظاهر ويعاقب المسيء ولا يجزئ المحسن والفلسفات الأخلاقية كثيرة وما الذي يعود إليّ نتيجة تمسكي

بفلسفة الواجب التي نادى بها كَانْتْ أو فلسفة اللذة التي قال بها أريستيب وأبيقور أو فلسفة المنفعة وهي فلسفة وليم جيمس؟

قال فيخته الفيلسوف الألماني: «الأخلاق من غير دين عبث» وقال غاندي: «إن الدين ومكارم الأخلاق هما شيء واحد لا يقبلان الانفصال»[٨٥].

ثم إن الملحد صاحب الخلق لا يلبث أن تنجلي حقيقته وماديته لو تعمقت معه في الصلة والعلاقة فهو طيب الأخلاق ما لم تتعرض مصالحه للخطر فإن خاف عليها وشعر أنها في خطر فإنه ينسى الأخلاق والسلوك ويكون جل همه مصلحته ولو على حساب الآخرين.

إن لدينا الكثير من الأمثلة على خلق ذوي الدين بينما لم يشتهر بين الناس ملحد صاحب خلق؟

ثم إن هؤلاء الذين تمسكوا بهذه النقطة يغلب على ظني أنهم فهموا الأخلاق بحدود أصغر مما يفهمها المؤمنون أو مما هي عليه حقيقة، فكأنهم ظنوا الأخلاق هي الصدق والأمانة فحسب، والحقيقة أن الأخلاق تظهر في كل تصرف يقوم به الإنسان مع ربه أولاً ومع نفسه وسائر الخلق ثانيًا، فإذا قصر في ناحية منها اعتبر مقصرًا في أخلاقه. إن ما يشتهر عن الغربيين والبريطانيين بالذات من أنهم أهل الصدق إنما اشتهر هذا لأنه كان من هدف سياسة بريطانيا في المنطقة العربية الإسلامية ليسهل تثبيت أقدامها هنا بينما نملك أمثلة كثيرة على سوء خلقهم من عهر وزنا ولواط وتفكك أسرة ومادية واضحة ومكر بالشعوب[٨٦].

وبالمقابل نملك آلافًا من الأمثلة على خلق المسلمين وتكامله من جميع الجوانب. أما مسألة الضمير فسأكتفي في الرد عليها بمحاولة أمريكا تحريم الخمر وفشلها في ذلك بينما استطاع الإسلام

ذلك بسهولة. فعن ابن بريدة عن أبيه قال بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة إذ قمت حتى آتي رسول الله ﷺ فأسلم وقد نزل تحريم الخمر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[٨٧].

فجئت إلى أصحابي فقرأتها عليهم إلى قوله : (فهل أنتم منتهون) قال : وبعض القوم شُربته في يده شرب بعضًا وبقي بعض في الإناء تحت شفتيه العليا كما يفعل الحجام ثم صبوا في باطيتهم فقالوا : انتهينا ربنا انتهينا[٨٨].

والسبب في هذه الاستجابة العجيبة العقيدة والإيمان بالله عز وجل وأنه يراهم أينما كانوا وسيحاسبهم على أعمالهم فالأخلاق إذا بنيت على العقيدة كانت من أبدع ما يكون. أما إذا كانت بدون عقيدة فإنها تكون معرضة للتغير والتبدل كما هو واقع عند الغرب فهو على استعداد أن يحترم قانون الإشارة الضوئية المرورية لكنه لن يستجيب لقانون يمنع الخمر أو الزنا أو غيره مما يسيء إلى الأخلاق. فما تذرعوا به من أن الضمير والأخلاق لا تحتاج إلى دين أمر مرفوض عقلاً وشرعًا وواقعًا.

قيام الساعة

ويستخدم الملحدون أسلوب الاستهزاء بالإيمان فيثيرون غبارًا حول الساعة والجزاء والجنة والنار. ومما قالوه: إن القرآن يقول (لعل الساعة تكون قريبًا)، وقد مضى أكثر من أربعة عشر قرنًا ولم تقم الساعة بعد. ونسي هؤلاء أو تناسوا أن القرب والبعد مسألة نسبية وأن الألف عام أو أكثر ليست إلا زمنًا يسيرًا وعهدًا قريبًا بالنسبة لعمر الدنيا وبخاصة إذا عرفنا ما يقوله علماء الجيولوجيا الذين يقدرون عمر الأرض

بالملايين من السنين والقرون . ونضيف إلى هذا أن محمدًا ﷺ خاتم النبيين وأن رسالته هي الكلمة الأخيرة من الله للناس وبذلك يكون معنى القرب واضحًا ، فلا نبي بعده ولا رسالة بعده حتى تقوم الساعة[٨٩] .

التقدم نقيض الدين

يرى الماديون أن التطور الحضاري الذي بلغه الإنسان ينفي الدين إذ الحقيقة في نظرهم هي ما يمكن فحْصُه وإجراء التجارب عليه عمليًا بينما حقائق الدين تنفي ذلك فهي تقوم على ما لا يمكن فحصه ومشاهدته[٩٠] .

وفي ذلك يقول ملحد القصيم « وقد أبدع الإغريق والرومان والمصريون القدماء وغيرهم من الشعوب القديمة لأنهم عبدوا الطبيعة .. وهوت جميع الأمم التي انصرفت إلى ما لا تحس ولا ترى » .

وإلى نفس المعنى يشير جوستاف لوبون في كتابه الآراء والمعتقدات فيقول : (إن الإيمان بالله وحده كان نكبة على البشر لأنه وقف بالحضارة عن التقدم ولم تستطع الحضارة البشرية أن تخطو خطواتها الصحيحة إلا في عهود الوثنية وعبادة الأصنام)[٩١] .

ويقول الماديون إنهم قد تعاملوا مع الواقع المحسوس وضربوا صفحًا عن التصورات والخيالات فحصلوا على كل الثمار المادية من مال وثراء وترف وقصور وسيارات وطائرات وغواصات ورحلات فضاء وقوة سيادة وسيطرة . أما الأمم التي تؤمن بالروحانيات فهي فقيرة مستضعفة : مرض ، حرمان ، جوع ، فقدان للتكنولوجيا ، هزائم ، لا علماء ولا رجال فضاء[٩٢] .

المناقشة

نستطيع في البداية أن نقرر أن هؤلاء الماديين قد أخطؤوا في اعتمادهم على الحس وعلى التجربة فإذا كان الحس أو التجربة وسيلة صحيحة من وسائل

المعرفة فليست هي الوسيلة الوحيدة فهناك وسائل أخرى كالعقل والقلب أو البصيرة أو الحدس لأن الوجود له ظاهر وباطن فالحس أو التجربة وكذلك العقل وسيلتنا إلى معرفة الوجود الظاهر وأما البصيرة أو الحواس فوسيلتنا إلى معرفة الوجود الباطن أو عالم الغيب. وإذن فمن التحكم أن يعتمد الملحدون على وسيلة واحدة ثم يجعلونها المقياس لكل الحقائق، ثم إن المنطق السليم يقتضي أن يختلف الخالق وهو الله عن المخلوق: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾[٩٢].

وقد أكد العلم الحديث هذا الاختلاف وقرر أن الكون يسير إلى حالة من الخمود وانعدام الطاقة فلابد إذن من سبب أول لا يخضع[٩٣] لمّا تخضع له المادة ولابد أن يكون هذا السبب الأول غير مادي في طبيعته.

ومعنى هذا أن الخالق لا يمكن أن يكون ماديًا وإلا لخضع لما تخضع له المادة من الخمود والعجز ولكان من المستحيل أن يوجد الكون أو توجد الحياة.

على أن الماديين الذين لا يعترفون بغير المادة قد اضطروا إلى التسليم بأشياء ليست من عالم المادة ولا من معطيات الحس من ذلك مثلاً الحرارة والكهرباء فإنهم يدركون آثارها ويتحكمون في قواها ولكنهم عاجزون أشد العجز عن معرفة السر الكامن فيها، والأثير لا يستطيعون أن ينكروا وجوده في حين أنهم لم يروه ولم يقع تحت حسهم بل إنهم لم يتناولوه بتجربة تثبت وجوده.

وكذلك فإن العلم - الذي اعتمدوا على منهجه أصبح يؤمن اليوم بأن في الوجود قوى لا ينالها الحس المجرد ولا الحس المجهز بأقوى المجاهر وأصبح يؤمن بأن التجربة الحسية ليست هي المعيار الوحيد للحقائق، ذلك أن بعض الملاحظات تحمل العلماء على الإيمان

بوجود بعض حقائق غير مشاهدة قطعيًا .

ولذا فإن العلم لم يعد يدعي أن الحقيقة محصورة فيما علمناه من التجربة المباشرة فقانون الجاذبية وهو قانون علمي صحيح لا يمكن ملاحظته قطعًا وما شاهده العلماء من دوران القمر في الفلك وصعوبة رفع الحجر إلى أعلى، وسهولة النزول من الجبل عن الصعود فوقه لا يمثل في ذاته قانون الجاذبية، وإنما هي أشياء أخرى اضطروا لأجلها أن يؤمنوا بوجود هذا القانون حتى يستطيعوا أن يفسروا به هذه المشاهدات. وهذا القانون مع أنه لم يشاهد - حقيقة علمية - لأنه يفسر بعض الملاحظات، فليس بلازم إذن أن تكون الحقيقة هي ما علمناه مباشرة بالتجربة. ومن ثم نمضي إلى القول بأن الحقيقة الغيبية التي تربط وتفسر ما نلاحظه تعتبر حقيقة علمية من نفس الدرجة[٩٥].

وإذا كان الماديون من العلماء يؤمنون ببعض الحقائق الغيبية التي لا يمكن ملاحظتها فلماذا ينكرون الحقيقة الإلهية بدعوى أنها حقيقة غيبية ؟

وإذا كان الملحدون يحتجون على إنكارهم للحقيقة الإلهية بأنهم لم يروها فإننا نقول إذا كنتم ترون الروح السارية في الأجسام فإنكم قد تستطيعون أن تروا الله، ولكن الواقع غير هذا فإنكم لا ترون الروح ولن تروها مهما بذلتم من جهد وما الذي دعاكم إلى أن تؤمنوا بأن في الأجسام الحية أرواحًا ؟

أليس الذي دعاكم إلى الإيمان بذلك أن في الأجسام الحية مظاهر لا تبدو في الأجسام الميتة والجامدة وهذه المظاهر تختفي إذا فارقتها تلك القوة الخفية التي تسمى روحًا ؟

إن الكائن الحي يبدو أمامنا متحركًا متنفسًا غاديًا رائحًا ثم نراه وقد خمد وسكن وبرد جسمه ثم تحلل وفسد دون أن نرى شيئًا ماديًا منفصلاً عنه وإذن

فهناك شيء غير محسوس هو سر الأحياء إذا انفصل عن الكائن الحي مات وانقلب إلى عالم المادة الخامدة.

إننا مضطرون إلى الإيمان بوجود شيء غير مرئي ولا محسوس يسكن كيان الكائن الحي لأننا نرى آثار هذا الشيء حين يكون ونفتقدها حين يذهب. أما هذا الشيء نفسه فلا ينكشف لنا شيء منه في حضوره أو غيبته فلم لا نؤمن بالحقيقة الإلهية - وهي حقيقة روحية خالصة لأننا لا نرى هذه الحقيقة الروحية؟!

نحن أيضًا لا نرى الروح الكامنة في كيان الإنسان وغيره من الأحياء ومع ذلك فنحن جميعًا نؤمن بأن في كل كائن حي روحًا هي سر الحياة في كل الأحياء.[٩٦].

وما ذكروه من أن الإغريق والرومان والمصريين القدماء وغيرهم من الشعوب قد أبدعوا.. إلخ. فهذا نقبله من نواح ونرفضه من نواح أخرى.

نقبله من حيث فن العمارة والصناعات وبعض العلوم اليدوية. أما النواحي الأخلاقية والوثنيات والبطش والاستبداد فهذا أمر لا ينكر في سوء حضارتهم. ومع هذا فإن التقدم الذي وصلوا إليه ليس سببه أنهم عبدوا الطبيعة وقدسوها فإننا نلاحظ أن كثيرا من الشعوب الإفريقية وبعض شعوب جنوب آسيا لا يزال حتى الآن يعيش يعبد الأوثان والطبيعة ولا يعرف عن الإله شيئًا ومع ذلك نراهم في سلم التقدم الحضاري غير متقدمين ثم إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا لمن أحب. وكذلك يعطي الدنيا ومنها التقدم الحضاري لكل من يبذل فيه جهدًا بغض النظر عن اعتقاده.

فإذا قصر المسلمون في هذا المجال فليس لأن دينهم أمرهم بهذا بل يحضهم عليه وهذا أمر معروف.

وإذا تقدم عباد الطبيعة فليس لأنهم

عبدوا الطبيعة بل لأنهم بذلوا جهدًا في هذا المجال. ولا أدري ماذا يقصد بقوله (وهوت جميع الأمم التي انصرفت إلى ما لا تحس ولا ترى) هل يقصد أنها انقرضت أم زال سلطانها.

إن كانت الأولى فهذا باطل بالمشاهدة إذ لا يزال المسلمون موجودين على سبيل المثال وبالمقابل لا نرى من الرومان ولا الفراعنة أحدًا ولا أثر لحضارتهم ومن ينادي بأفكارهم. وإذا كانت الثانية أي زوال السلطان فهذا صحيح على جميع الدول المتدينة وغير المتدينة وهكذا قال الشاعر:

ما طار طير وارتفع

إلا كما طار وقع[٩٧].

فذهب الرومان واليونان والفراعنة وغيرهم إلا أنه يبقى جديرًا بالذكر أن الإسلام يختلف عنها في كونه سيرجع ويقوم سلطانه بإذن الله تعالى.

إن ما يزعمونه من أن الدين وقف في وجه الحضارة والتقدم فهذا ما لا يستطيع أحد إثباته على الدين الصحيح، أما دين الكنيسة فهذا دين ليس من عند الله بل هو من اختراع البطارقة الرهبان.

وضعف الدول التي تدين بالإسلام ليس مرده إلى الإسلام بل إن ضعفها ناتج عن استغلال الدول الاستعمارية لها وسيطرة أذناب المستعمر من أبناء ذلك البلد على مقدرات الشعوب ومن مظاهر الاستعمار والمناداة بترك الدين والتجرد عنه لأنهم علموا أثر الدين وقوة سلطانه وموقف الدين من الاستعمار واضح.

التفسير الجنسي

ومن تفاسير الملحدين الشاذة للدين التفسير الجنسي إذ اعتبر فرويد الدين بأنه نوع من التسامي بالغريزة الجنسية فبحب الطفل لأمه وغيرته مع أبيه وكراهيته الدفينة له (عقدة تسمى أوديب)[٩٨] اتخذت شكلاً ظاهريًا من التفكير اللاشعوري عن هذه الكراهية

بحب مبالغ فيه للأب ثم عبادته ثم عمل تمثال للأب وهكذا وجدت الأصنام ثم في النهاية الاتجاه بالعاطفة والعبادة نحو أب سماوي مجرد وفي هذا الشأن قال الملحدون (إن فكرة الإله انعكاس للشخصية الإنسانية على شاشة الكون)[٩٩].

ويعتبرون الدين نتاج اللاشعور الإنساني وليس انكشافًا لواقع خارجي[١٠٠].

ونسي فرويد أن فكرة وجود الله وجدت في جميع المجتمعات حتى في المجتمع البدائي الهمجي حيث لا كبت ولا كبح ولا تحريم للأم على الابن ولا البنت على الأب وفي تاريخ الفراعنة ما يثبت أنهم كانوا يتزوجون بناتهم وأخواتهم وكان واجبًا على فرويد أن يعلل لماذا لم يعبد الإنسان أبًا سماويًا وأمًا سماوية، أيضًا ـ بناء على نظريته - كانت البنت تفكر في أبيها فلم لم تقتل أمها وتعبدها. وبالتالي نصل إلى تعدد الآلهة وهذا يبطله واقع الموحدين.

الخوارق شذوذ

ويقول الماديون إن الدين يؤمن بالخوارق وقام عليها وهي شيء شاذ عن نظام العالم ودقة تركيبه فلا مجال للخوارق وعليه فلا مجال للدين لأنه قام عليها[١٠١].

والرد عليهم: نعم إن الدين قام على المعجزات والخوارق وهذا أمر ضروري لإثبات كونه دينًا من عند الله لا من قدرة البشر، فإذا عجز البشر عن الإتيان بمثله كان لزامًا عليهم أن يقرروا أنه لابد أن يكون من عند من هو أقدر وأعلم وهو الله تبارك وتعالى. أما أن الخوارق تشذ عن نظام العالم فهذا لابد من توضيحه. إن كان يقصد أنها لا تسير وفقًا لِمَا اعتاده الناس كعصا موسى حيث انقلبت أفعى فهذا أمر حق وإن كان يقصد أنها لا تنسجم مع النظام الكوني ولا يمكن أن

تقع فيه فهذا باطل بل هي منسجمة معه كل الانسجام. إذ الذي وضع نظام الكون هو الذي قدر الخوارق ثم إن كثيرًا من الناس لا يرشدهم نظام العالم ودقة صنعه على الباري عز وجل فكان لابد من شيء يخالف هذا النظام ليلفت نظر الذين لم يلتفتوا فكانت الخوارق. فهي للدلالة إلى الباري عز وجل لا لتنقض نظام العالم بل لتجعل الإنسان ينسجم مع هذا النظام فيعبد الله حق عبادته فكان ورودها لإتمام النظام وانسجام كل عناصر الكون ومنها الإنسان[١٠٢].

الخاتمة

تبين لنا من خلال هذه الدراسة ما يلي:

أولاً: إن الإلحاد كظاهرة عامة ارتبطت في القرون الثلاثة الأخيرة من تاريخ البشرية بأوروبا وأسهمت الكنيسة بقدر كبير في بروز هذه الظاهرة لمحاربتها العلم ولتحريفها لدين الله، الأمر الذي ولد كراهية للدين الذي مثلته ونفورًا منه، وعصبية للعلم كبديل للدين لجأ إليه العلماء والمفكرون يلتمسون منه حلاً لمشكلة الحياة جميعها.

ثانيًا: لجأ الماديون المعاصرون إلى العلم سعيًا إلى تأييد مقولاتهم واتخاذه سلاحًا في حربهم للدين والكنيسة.

ثالثًا: قد بينا أن العلم لا يسند دعاوي الماديين الإلحادية ولا يؤيد مقولاتهم، فقد كشف العلم تهافت مزاعم الماديين حول المادة والقول بأنها أساس الوجود والمصدر الوحيد للمعرفة، وقد أبطلنا دعواهم بأن المادة أزلية.

رابعًا: أثبت البحث أيضًا ضعف تمسك الماديين بالمصادفة والطبيعة لتفسير ظهور الحياة في الكون وما يجري فيه من أحداث، بل إن العلم يدحض دعاوي الماديين في هذا الصدد ويدعم الإيمان بوجود إله قادر موصوف بالكمال.

والله ولي التوفيق.

الهوامش والمراجع

١ - سورة يونس آية ١٠١ .

٢ - سورة ق آية ٦ - ٨ .

٣ - الجاثية آية ٢٤ .

٤ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١/٧٩.

٥ - سورة النحل آية ١٢٥ .

٦ - سورة العنكبوت، آية ٤٦ .

٧ - عالم الغيب والشهادة، عثمان جمعة، ص١٣٢.

٨ - سورة البقرة آية ٢٨٦ .

٩ - سورة الجاثية، آية ٢٤ .

١٠ -محمد الغزالي، عقيدة المسلم ص٢٧٨ .

١١ -مصطفى حلمي، دراسة في الفكر الإسلامي، ص ٣٠٤ .

١٢ -بلقاسم الغالي، مجلة المسلم المعاصر، ص٧٦.

١٣ -مرجع سابق رقم ١٠ ، ص ٢٠٣ .

١٤ -ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي ص١٧٥ ، ط١٣٨٥هـ.

١٥ -الأعلام للزركلي ج ٣ ص ٢٢٧ .

١٦ -الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان ص٣٠ .

١٧ -الإنسان في العلم الحديث، جوليان مكسلي ترجمة حسن خطاب النهضة المصرية ص٢٢٣ .

١٨ -رضا المطوف السمادي، الحياة بعد الموت، ص٩٩ ط دار الزهراء .

١٩ -سورة الفرقان، آية ٢١ .

٢٠ -الزمر آية ٣٨ .

٢١ -سورة البقرة، آية ٥٥ .

٢٢ -سورة النساء، آية ١٥٣ .

٢٣ -الإسلام أقوى، محمد قلعجي ص١٨٢ .

٢٤ -المرجع السابق نقلاً عن مصير البشرية للكونت دي لوي ص١٣٧ .

٢٥ -مصطفى محمود، الله ص ١١٠ .

٢٦ -عباس محمود العقاد، كتاب الله ص٥٦ ط دار المعارف.

٢٧ -المرجع السابق ص ٥٦ .

٢٨ - الفصل في الملل والنحل لابن حزم خ ١، ص ٢٦ .

٢٩ - محمد عبده، رسالة التوحيد ص ٥٤ .

٣٠ - نديم الجسر، قصة الإيمان ص ٢٠٦ .

٣١ - وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى ص ١٠٦.

٣٢ - العلم يدعو للإيمان، كريسي موريسون ترجمة محمود الفلكي ص٨٩ -٩٠ .

٣٣ - الله يتجلى في عصر العلم ص٩ -١٠ ترجمة سرحان الدمرداش .

٣٤ - وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ص ١١١ .

٣٥ - المرجع السابق، ص ١١٢ .

٣٦ - المرجع السابق، ص ١١١ .

٣٧ - المرجع نفسه، ص ١٠٧ .

٣٨ - المرجع نفسه، ص ١١١ .

٣٩ - الله يتجلى في عصر العلم ترجمة محمود الدمرداش ص ٥٨ .

٤٠ - أحمد الشرباصي، الأئمة الأربعة ص٥٨.

٤١ - محمد حسين آل ياسين، الله بين الفطرة والدليل ص٩ ط ١٣٩٨هـ.

٤٢ - يوسف كرم، كتاب الطبيعة ص٨ .

٤٣ - سعيد حوى الله ص ٩١ .

٤٤ - د. محمد أبو الغيط، مقال في حولية كلية أصول الدين بعنوان الإسلام والفكر المادي، ص ٩٢ - ٩٣ .

٤٥ - سورة الأنعام، آية ٩٥ .

٤٦ - سورة يوسف، آية ٤٠ .

٤٧ - د. شوقي إبراهيم علي عبد الله، دراسات في العقيدة، ص ٨١ .

٤٨ - المرجع السابق، ص ١١٨ .

٤٩ - نديم الجسر قصة الإيمان، ص ٥١ .

٥٠ - المرجع نفسه ص ٤٩ .

٥١ - سعيد حوى الله ص ٤٠ .

٥٢ - سورة الحج، آية ٧٣ .

٥٣ - سعيد حوى الله ص ٣٩ .

٥٤ - عبد المنعم النمر، الإسلام والمبادئ المستوردة ص ٤٦ ط ١ ، ١٣٨٠هـ.

٥٥ - مرجع سابق رقم ١٨ ص ٢٧ .

٥٦ - سيد قطب، في ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٨٤ ط ١٣٩٨هـ.

٥٧ -مرجع سابق رقم ٣٤ ص ١١٣ ترجمة محمود صالح الفلكي.

٥٨ - روح الدين الإسلامي، عفيف عبد الفتاح طبارة ص ٨٨ ، ٨٩ .

٥٩ - سورة العنكبوت، آية ١٩ .

٦٠ - سورة التكوير، آية ٢ .

٦١ - عبد العزيز حسين، بين الإلحاد والتوحيد، ص ٣٨ .

٦٢ - سورة غافر، الآيات ١٦ - ١٧ .

٦٣ - سورة طه آية ١٢٤ .

٦٤ - مرجع سابق رقم ١٨ ص ٢١١ .

٦٥ - سورة الأنبياء، آية ٢٢ .

٦٦ - سورة القصص، آية ٦٨ .

٦٧ - سورة العنكبوت، آيات: ٢ - ٣ .

٦٨ - رواه ابن حبان في صحيحه ج١ ص٣٧٨ .

٦٩ - روضة العقلاء ص٣٩ .

٧٠ - الدلائل والاعتبار، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ص ٥ .

٧١ - سورة الأعراف، الآية ٩٦ .

٧٢ - الدلائل والاعتبار، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ص٦ .

٧٣ - محمد فريد وجدي، على أطلال المذهب المادي ج ١ ، ص ١٢٥ .

٧٤ - وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ص٣٨ .

٧٥ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، ص٤١، ط دار الطباعة المحمدية مصر .

٧٦ - عبد الكريم الخطيب، الله والإنسان ص١، ٣ ط مصر .

٧٧ - سورة القصص، آية ٧٧ .

٧٨ - سورة الأعراف، آية ٣٢ .

٧٩ - محمد عبد المنعم خفاجي، الرد على الملحدين ص ١٥ .

٨٠ - مرجع سابق رقم ١٨ ، ص ٢١٤ .

٨١ - نفس المرجع ، ص ٢١٤ .

٨٢ - المدخل إلى الثقافة الإسلامية ص ٣١ لجنة من قسم الثقافة .

٨٣ - المرجع السابق، ص ٣٢ .

٨٤ - يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، ص١٨٩ .

٨٥ - سورة النساء، آية ١٤٣ .

٨٦ - مرجع سابق رقم ١٨ ، ص ٢١٦ .

٨٧ - سورة المائدة، آية ٩٠ .

٨٨ - رواه ابن جرير في تفسيره بسنده، الآية رقم ٩٠ .

٨٩ - أحمد العسال، الإسلام بين شبهات الضالين وأكاذيب المفترين ص٢٩، طبعة ١٣٩٥هـ .

٩٠ - محمد أحمد حسن، العقيدة الإسلامية في القرآن والسنة ص ٣ ، ١٣٨٥هـ.

٩١ - عبد الله بن علي اليابس الرد القويم على ملحد القصيم ص ٤٣٠ .

٩٢ - عبد الكريم الخطيب، الله والإنسان ص ١٠٦، دار الفكر العربي، ١٣٩١هـ.

٩٣ - سورة النحل، آية ١٧ .

٩٤ - الله يتجلى في عصر العلم ترجمة سرحان الدمرداش، ص ٣٥ .

٩٥ - وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ص٤٣ .

٩٦ - د. شوقي إبراهيم، دراسات في العقيدة، ص ١٢٤ .

٩٧ - مرجع سابق رقم ١٨ ، ص ٢١٩ .

٩٨ - المرجع نفسه ص ٢٢٠ .

٩٩ - مرجع سابق رقم ١٨ ، ص ١٢٥ .

١٠٠ - المرجع نفسه، ص ١٠٣.

١٠١ - القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون، مصطفى صبري ص٣٩.

١٠٢ - مرجع سابق رقم ١٨، ص ٢٢١ .

أهم المراجع

١ - ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، ط مصر التجارية.

٢ - أبو الحسن النّدوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار الطباعة المحمدية بمصر١٣٨٥هـ.

٣ - د. أحمد الشرباصي، الأئمة الأربعة، ط مصر.

٤ - أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال ط النيل بمصر.

٥ - أحمد العسال، الإسلام بين شبهات الضالين وأكاذيب المفترين، ط دار الوفاء بالمنصورة١٣٩٥هـ.

٦ - بلقاسم الغالي، مجلة المسلم المعاصر، العدد ١٤، ١٤١٣هـ.

٧ - بسام سلامة، الإيمان بالغيب، ط ١٣٩٣هـ، بيروت .

٨ - جمال الدين الأفغاني، الرد على الدهريين، ط بولاق.

٩ - جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ط مصر.

١٠ - جوليان مكسلي، الإنسان في العلم الحديث ترجمة حسن خطاب النهضة المصرية.

١١ - الدلائل والاعتبار، أبو عثمان عمرو الجاحظ، ط مصر.

١٢ - سرحان الدمرداش (مترجم)، الله يتجلى في عصر العلم، بيروت.

١٣ - سيد قطب، في ظلال القرآن، ط بيروت ١٣٩٨هـ.

١٤ - د. شوقي إبراهيم علي عبد الله، محاضرات في العقيدة الإسلامية، ط دار الطباعة المحمدية، مصر.

١٥ - عبد الله بن علي باعيسى، الرد القويم على ملحد القصيم.

١٦ - عبد الكريم الخطيب، الله والإنسان، دار الفكر العربي، ١٣٩١هـ.

١٧ - العقاد، كتاب الله، ط دار المعارف مصر.

١٨ - فريد وجدي، على أطلال المذهب المادي، ط مصر.

١٩ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن.

٢٠ - كريسي موريسون، العلم يدعو للإيمان.

٢١ - محمد الغزالي، عقيدة المسلم، ط مصر.

٢٢ - مصطفى حلمي، دراسات في الفكر الإسلامي، ط دار العلوم، ١٩٨٢م.

٢٣ - محمد عبده، رسالة التوحيد، مصر.

٢٤ - محمد عبد المنعم خفاجي، الرد على الملحدين، ط دار الكرنك.

٢٥ - مصطفى صبري، القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون، ط عيسى بابي الحلبي، مصر، ١٣٦٢هـ.

٢٦ - حسين آل ياسين، الله بين الفطرة والدليل، ط الجبلاوي، مصر.

٢٧ - عبد المنعم النمر، الإسلام والمبادئ المستوردة.

٢٨ - عبد العزيز حسين، بين الإلحاد والتوحيد.

٢٩ - وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى.

٣٠ - يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة.

٣١ - يوسف كرم، كتاب الطبيعة.